

الأعمال غير الكاملة

٤

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر

لوحة الغلاف الأول للفنان ماكس أرنست رسمها عام ١٩٢٤ واسمها « ضيوف الأحد » .

لوحة الغلاف الأخير : المصور ساياك

المشرف الفني : نبيل البقيلي

الخطوط : حسين ماجد

طبع الكتاب : دار الكتب - بيروت

غَادَةُ السَّمَان

الأعمال غير الكاملة

٤

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر



جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان

بيروت - ص . ب . ١١٨٣٣١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى : تموز (يوليو) ١٩٧٩
الطبعة الثانية : كانون الثاني (يناير) ١٩٨١
الطبعة الثالثة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥
الطبعة الرابعة : كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٨

مصارحة

١ - هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهتم بذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ - ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقى مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً منى بأهميتها - وهي قد تكون أو لا تكون كذلك - ولكن بالدرجة الأولى لأننى لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضى الكتابى ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لى فى بيت كل قارىء عربى من قرأنى ملجأ يحمى حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرنى ويسعدنى .

٢ - ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة - إلا فيما ندر - ولست من هذه الندره . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمنى الذى كتبت فيه . لحظة كتبها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعى أفضل مما فعلت .

٣ - أعتقد أن العمل الفنى كالحطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإننى لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى فى غدى عما أرضى عنه فى يومى ، وهذا معناه - لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه - أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبى (!)

وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ - اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ - « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري - مهما كان مبدعاً - هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبه بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص - أي مختارات من أعمالي - (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن - كما أتصور - في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ - ٩ - ٧٨

الاستدراك

إلى الذئاب المتوحدة مثلي ..
التي جاعت يوماً إلى الحنان ،
فالتهمت ذاكرتها .

غادة

عن مدينتي الام ..

أعتقد أن القضية في النهاية هي قضية حب ؛
كلما ازدادت حباً للذكرى ما ، ازدادت سطوة
تلك الذكرى ... وغرابتها ...

— فلاديمير نابوكوف —

لقد لقيتها الحياة درساً لا ينسى ، وهكذا
حينما يُغلق باب ما في قلبها ، فإنها تسارع إلى
فتح باب آخر ! ..

— ميرتل ريد —

هوامش على فاتورة دمشقية

هذا الصباح وجدت رسالة في المجلة البيروتية التي أعمل فيها بانتظاري . «ظرفها» مصفر كأنما أحرقها الشمس وهي تركض سنوات بحثاً عني من قارة إلى أخرى ، وقد طمس المطر ختمها العتيق فلم أتبين للوهلة الأولى كلماته .. اسم المرسل غير موجود ، وثمة طابعان دمشقيان يعلنان فقط عن هويتها .

رسالة من دمشق !

عشرة أعوام وأنا أنتظر أن تكتب لي أمي العظيمة دمشق ... عشرة أعوام من الصمت حتى ظننتها نسيته !

ترى من وقعها لي ؟ قاسيون ؟ الغوطة ؟ « ساحة النجمة » حيث تربيت وكبرت وحزمت حقائبي ورحلت ؟ .. وإن كتبت لي دمشق ، فماذا تقول لي ؟ بحرقه تذكرت ليالي وليالي وأنا أنتظر رسالة دمشق إليّ ... في كل مدينة تشردت فيها ، انتظرت أن يأتي هذا الظرف المحروق بالشمس والريح ، المغسول بالمطر والثلج ، اللاهث خلفي ... أذكر جيداً أنني سقطت في فخ الغربه في لندن عام ١٩٦٧ بعد وفاة أبي بأشهر . يومها كتبت إلى دمشق ، وبالضبط كتبت إلى صديق لوالدي بالجامعة . قلت له ان أحد السقراء العرب هناك توسط لي لدى إحدى الصحف اللندنية للعمل فيها بالاضافة إلى دراستي وعلمي مع « البي . بي سي » ، وانني بدلاً من أن أفرح أصبت بهلع مروع .. أحسست أنني لو قبلت فسينطبق فخ الغربه علي نهائياً ، وسأسقط فيه بعجز أية فأرة صغيرة تطبق أسنان الفخ على عنقها . كان المخرج الوحيد في العودة إلى دمشق ، ولكن « عرابي » لم يجب ، لم يكتب لي حرفاً واحداً ..

ودمشق لي لم تكتب لي مباشرة لتقول لي تعالي .

وكنت أنهض مع كل فجر على صوت الحمام اللندني الحزين ، الذي يبدأ أول ضربة

في سيمفونية الفجر هناك ، وكان ينوح مثل فريق من الندابين استأجرته روح شريرة ليأتي موتي اليومي مع كل يوم جديد أحياء . وكنت أقيع تحت الفجر الرمادي مثل سجين يجلده البرد والانتظار... وأنتظر... وأنتظر حتى يأتي ساعي البريد، وأسمع الصوت الأليف لسقوط الرسائل على الأرض .. وأركض إلى الرسائل بحثاً عن رسالة « عرابي » .. ولا أجدها .. وأحمل زجاجة الحليب التي يتركها البائع كل صباح قرب الرسائل ويصير للحليب طعم السم . (ربما لم أكن يومئذ أرغب حقاً في العودة ، لكنني كنت دونما شك أرغب في أن تظل إمكانية العودة قائمة !!) ..

يوم ويوم ويوم .. ولم تأت رسالة صديق الوالد الذي رباني طفلة ... ولم يقل لي حتى لماذا حكمتني دمشق بالسجن ثلاثة أشهر . لقد تبغت الحكم الغيابي حتى دون أن أعرف السبب ! كنت تماماً مثل سجين كافكا ، محكوم بلا جرم يعرفه . (وحتى حين علمت بأن السبب في الحكم هو قانون رجعي المفعول ، يدينني لأنني من حملة الشهادات العالية ، وقد تركت عملي في دمشق دون إذن مسبق ورحلت ، لم أشعر بأنني مذنب ... فقد كنت أجهل تماماً وجود قانون كهذا ، ولم أدر به إلا بعد أن حكمت بالسجن ... ولو أحسست بالذنب لرحلت إلى السجن الدمشقي على أول طائرة ولاصررت على الدخول إليه حتى خارج أوقات الدوام الرسمية للسجان .. وحتى بعد أعوام طويلة حينما أصدر رئيس البلاد في أوائل السبعينات عفواً عاماً عن هذا « الحرم » شملني ، لم أشعر بأنه غفر لي بقدر ما شعرت بأنه قام بفعل محبة ، إذ مسح خطأ قام به آخرون نحوي .. لم أشعر بأنني مذنب سابقة ، وإنما شعرت بأن دمشق عادت لتدفقني بحبها) .

ولكن رسالة صديق الوالد لم تصل . وقررت : لا ريب في أن دمشق تحب أن تكتب مباشرة لأطفالها المشردين في غابة الحياة ... وأن رسالة منها لا بد وأن تصلني ذات يوم ... ورغم الصمت المطبق ، لم أسقط نهائياً في فخ الغربة .. كان جسدي يركض في أوروبا يجنون الشهية إلى الحياة والرغبة في اكتشاف الأشياء ، وكانت جذوري تمعن تشبهاً بتربة آسيا ، وتتغلغل في حنايا ترابها مثل طفل يدفن وجهه في جسد أمه العظيمة .. وكنت كل ليلة أحلم بأنني أسير في دمشق .. في شوارعها . كانت قبيلة معارفي تهاجمني بوجوهها ثم تذوب بلا رحمة في القطرات الأولى لليقظة .

وكانت الرسائل تصلني من الجميع ، إلا من دمشق ... وكنت أمزق رسائل الأحياء بحثي ، فقد كان لها في غربتي طعم حزمة من الغاردينيا تُقدّمُ لامرأة جائعة

تفضل رغيف خبز .. ولم يكن من الممكن أن يداوي جوعي المسعور للحنان غير رغيف حب دمشق. مرت أعوام فقدت خلالها أعضائي النفسية عضواً بعد آخر على شوارع المدن التي تشردت فيها ... كنت أخلف في كل مدينة جزءاً من طاقتي على الفرح . والتوق ، والانتظار . وأينما كنت ، في جنيف ، كوبنهاغن ، زوريخ ، باريس . روما ، كنت أنهض مع الفجر لأسأل موظف الفندق أو صاحبة الدار عن رسائل لي رغم أن أحداً لم يكن يعرف عنواني ! .. كنت واثقة من أن دمشق ستكتب لي وأنها تعرف عنواني أينما كنت لو شئت ! . وصحيح أن الطفل يقطع جبل سرته حين يغادر رحم أمه ، لكنه يوم يغادر رحم وطنه يزداد الحبل الذي يربطه به سماكة وثخناً حتى يتحول إلى جسر لا تهدمه الزلازل العاطفية كلها . وكان ذلك الجسر الذي يشدني إلى دمشق يكبر كل يوم كالجسد الحي . وينبض ويخفق مع نبض الانتظار في قلبي ...

وكنت أشيخ بسرعة ، لقد كبرت في أعوام ألف عام وأحرقني صقيع أوروبا ، وجرفني نهر الحزن الذي لا عودة منه ، ولكنني ظلت أنتظر رسالة أمي دمشق كي تعيد إلي الطفولة والفرح العتيق .. وانكسر في داخلي شيء إلى الأبد فاكشفت الرابطة التي تشدني إلى المكسورين أمثالي نساء ورجالاً ، الجائعين إلى رغيف ما : رغيف قمح ورغيف حنان ..

وأخيراً جاءت الرسالة !

هل يمكن أن تكون هذه الرسالة أمامي ، المصفرة كوجه لوحته الشمس وغبار السفر ، إلا الرسالة المنتظرة من أمي دمشق ؟ .

نرى بآية لغة تخاطبني ؟ وهل ستفوح من الرسالة حين أفتحها رائحة البارود والياسمين ؟ وبأي حبر تختار أن تكتب ؟ بالأخضر من نسخ الغوطة أم بالأحمر من بردى ممزوجة بتراب جبل الشيخ ؟ . وخطها ، هل يمكن أن يكون إلا قريباً من خط الأطفال والأنبياء ، لا من خطاطي الرقعي والثلث في التكايا ؟ .

وكيف تبدأ رسالتها إلي ؟ هل تقول لي : « ابنتي الضالة ، عودي إلى رحم حناني . فقد طال عذابك ! عودي يا نرف قلبي فقد اشتقت لنوارسي المشردة ؟ » .

أم تراها تبدأني بالعتب : « لماذا يا ليلي الضائعة في الغابة تركت بيتك الآمن وتبعت الذئب ؟ » أم تراها تعرف أن الحساس والشهية إلى المعرفة ، اللذين رضعتهما فيها . حرصاني على أن أقذف ببوليصات التأمين من النوافذ ، وأحرق كل الوصايا الاجتماعية

المتوارثة التي تقدم مواصفات جاهزة محددة لطبخ وجبة الاستقرار ، راکضة في العالم
الواسع باحثه عن حقيقته وحقيقتي بلا خوف ولا ندم ؟

تراها تكتب لي عبارة واحدة فقط : « بوركنت يا ابني الشجاعة » ، أم تراها
ترسل على رأسي غضبها كصاعقة محرقة : « فلتحرق اللعنة حنجرتك كلما ضحكت ! » ؟
ومزقت غلاف دمشق لأقرأ الرسالة ... لم تكن مكتوبة بحبر بردي و تراب قاسيون ،
ولا بخط الأطفال والأولياء . وإنما كانت رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة ! ولم تكن
رسالة حب أو عتب أو شوق أو غفران أو لعنة ... كانت فاتورة !

أجل ، فاتورة من إحدى المؤسسات التي عملت فيها منذ عشرة أعوام ، قبل رحيلي
من دمشق ، تطالبي بمبلغ ١١٥ ليرة سورية وفرنك واحد فقط لا غير ، فروق رواتب
مقبوضة من قبلي ، إلى آخره إلى آخره إلى آخره .. (إذن وحده كومبيوتر الفواتير لم
ينسني !) ...

فاتورة ؟

ولو جلست وإياك يا دمشق حول مائدة مستديرة وأبرزت لي فواتيرك كلها ، لما قلت
لك غير عبارة واحدة : « لك عمري ! .. لفواتيرك عمري الضئيل الذي لا يكفي ، ولا
يعني أكثر من عمر بعوضة صغيرة تقف لبرهة فوق نافذة دهرك المشرعة على أفق التاريخ » ..
دمشق . لك عمري ،

لا ١١٥ ليرة وفرنك واحد فقط لا غير !

وهذي السطور أكتبها لك على الهوامش البيض للفاتورة ... (وأعيدها إليك مرفقة
بالمبالغ المذكور أعلاه) .

آه كم كتبت لك ! على البخار المتكاثف فوق زجاج مدن نائية باردة ... على
حقول الثلج كتبت لك . على الطاولات في حانات حزينة ، على جدران الطائرات
الملاصقة لمقعدتي كتبت لك . فوق خشب صالات الترانزيت في المطارات ، على بطاقات
التطعيم ، فوق غيتاري كتبت لك . على أرصفة لندن بالطبشور الملون رسمتك وحرست
اسمك من المطر . على إطارات دراجتي النارية . على أربطة الشاش الأبيض التي تلف
جرحاً ما . على قبعة الأستاذ . بالحبر الأحمر طالما كتبت اسمك فوق جلدي باصبعي ...

آه كم كتبت لك ! وهذي السطور أكتبها لك اليوم على الهوامش البيضاء للفاتورة ..
وكم انتظرت وسأظل أنتظر رسالتك ! ..
وسأسال عنها وأنا أحتضر .
(من « ابنة ما » لك بيروت - تشرين الثاني ١٩٧٣ - بواسطة المعرفة *) .

• نشرت يومئذ في مجلة « المعرفة » السورية .

الرصاصة لك ، والجرح لي ! ...

حينما أغمض عيني ، تندلع الحرائق فيهما . ففي عيني اخترقتك يا دمشق ، حملتك عاماً بعد عام ودرت بك الدنيا ، ودارت بي الدنيا وكنت أبدأ ملجأً ومبكاً ومبخرتي وبوصلتي ، وتعويذتي التي بها أطرد شرور العالم ... وكنت الجزيرة الوحيدة المخضرة في بحار الذاكرة الدامية .

مثل زهرة دوار الشمس كنت أدير وجهي ملاحقة رقصة العصر المسعورة ، ولكن جنوري كانت أبدأ مغروسة في « قاسيونك » ونسغك يصب في شراييني ، وكانت الغربة عنك مزيداً من الالتصاق برحم تاريخك ...

دمشق ، يا أيتها العريقة كسنديانة الأساطير ! طيورك المهاجرة تقطنك أينما كانت ، تحترق أجنحتها إذا مرت بصمودك صاعقة ... دمشق ، يا لؤلؤة الزمن ! ليست صدفة أن تضربك إسرائيل ، فأنت أقدم مدينة في التاريخ ، وفي مجرد (وجودك) تحد لكل ما يفتقد إلى العراقة والأصالة والعظمة الانسانية . لقد كنت دوماً مقبرة الغزاة ، وكل هجمة بربرية « تيمورلنكية » كانت تنكسر عند أقدامك ... وهذه ليست أول مرة تحاول فيها قتات مقاتلة هجينة تطويعك ، ففي لوائحك السريانية والآرامية وفي لوائحك المكتوبة بأول أبجدية اخترعها العالم ، حكايات دفاعك عن الإنسانية والأصالة ، وخابية الفرح المعتقة في أرضك ... وليني إسرائيل مطامح فيك منذ عهد داود الذي هزمك إلى حين ، كما هزمت في ١٩٦٧ إلى حين .

...

هل هي صدفة أن الغارة الاسرائيلية الأخيرة على دمشق أصابت ، في ما أصابت ، ما يلي : مستشفى الشرق الأوسط ، المركز الثقافي السوفياتي ، دار المعلمين والمعلمات ، نقابة الأطباء ، مبنى الاذاعة والتلفزيون ، بيوت المدنيين ؟

أي أنها ضربت ما يلي : مستشفى ، مدرسة ، مركز ثقافي ، مركز اعلامي ، أبرياء
عزل ؟

ألا تختزل اسرائيل بهذه الغارة وحدها كل ما تمثله ، وتكتب صيغتها بكلمة حروفها
القنابل ، تقول ببساطة : « أنا ضد الثقافة الممثلة بالمركز الثقافي . ضد الانسانية الممثلة
بالأطباء والمستشفيات . ضد الطفولة والبراءة الممثلة بالأهلين العزل . ضد الحضارة واللغة
الممثلة بمركز اعلامي ؟ » . وهل كانت صدفة أن تضرب اسرائيل شارع السفارات
لتعلن عن عدائها الشامل لشعوب العالم كله ، وهل هي صدفة أن قتل وجرح في الغارات
رجال ونساء من الأمم المتحدة يحملون جنسيات الدول الآتية :

هولندا ، بولندا ، فرنسا ، باكستان ، ايرلندا ، النرويج ، الهند ، روسيا ؟

هل هي صدفة ، أم هو بيان لخطة عمل اسرائيل ، وبرقية مكتوبة بالصواريخ تحمل
اعترافات اسرائيل بنواياها وتهديداتها للعالم المتعدن بأكمله ؟

وحين فقد العدو أعصابه أمام هزائمه في الجولان ، وانطلق يضرب على غير هدى ،
ألم يكن عقله الباطن هو الذي يحدد أهداف العدوان ، فكان الهدف ممثلي العالم في شارع
السفارات في دمشق ؟

عشرات الطائرات حملت البحيم وركضت به فوق وجه دمشق الناصع ، جرحته
ولكن ما ظفرت بدمعة . زرعت فيه الحرائق : أشعلت مدرستي وبيتي وشارعي وأسرتي
وقبر أبي ... ولكن ما هم ! دمشق الحرائق تضيء ... وكالفينيق تولد من الرماد .
وككل الأمم المقاتلة من أجل الحق والانسانية ، بنبت ثوارها من حطام البيوت ، ويخرجون
من الزجاج المحطم ، كما تشق الكهأة موات الصحراء وتخرج من العدم حين يمر بها طائر
الرعد .

...

يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ، الساعة ١٢ ظهراً ، بدأ عرس الدم في دمشق . أمطرت
السماء ناراً وزجاجاً مسحوقاً وحديداً وأجساداً ممزقة . ونبتت أنياب دمشق وأظافرها ،
وولدت هانوي العربية ، وصارت شوارعها أنهار مقاتلين ، ولم يهرب المواطنون إلى
الملاجئ ، بل وقف أكثرهم يتأمل ما يدور كما يخرج الناس من بيوتهم إلى الحقول حين
يهطل المطر للمرة الأولى مع الخريف ...

مطر القتال ، مطر الدم ، مطر النار كان برداً وسلاماً على قلوبهم التي قتلتها القهر
طيلة أعوام ستة تساقط خلالها ثلج الذل باستمرار ، بصمت ، بهلوه وكاد صقيعه يطمر
النفوس ويحجر الآمال يبحث جديد لأمتنا ... حتى وكالة الأنباء الفرنسية لاحظت أن ردة
فعل المواطنين في دمشق على الغارة لم تكن عادية ، ففسرت ذلك بقولها ان « الغارة أثارت
الفضول في شوارع دمشق أكثر مما أثارت الفرع » ! إذ لم يعد لدى المواطن العربي فرع
يفوق فزعه من الاستسلام لحالة « اللاسلم - اللاحرب » على الطريقة الاسرائيلية .

...

دمشق ، هانوي العرب ... فصحيح أن عشرات البيوت تهمت فوق رؤوس
أصحابها ، والسيارات انفجرت بأهلها ، وأغصان الأشجار في الشوارع حملت ثمار
الحرب البشرية الممزقة الدامية ، المعمدة بقربان الدم ، إلا أن الشمس عادت تشرق من
جديد في عيون أهلها . ففي كل شارع ، وكل زقاق ، وعلى سطوح المنازل ، وفي
شقوق الأرض المحفورة بالقنابل ، وفي مسام التراب يقور المقاتلون الشبان الذين تراوح
أعمارهم بين ١٥ سنة و ٦٠ سنة : الرشاش في كتف ، وسلّة الأكل في الكتف الأخرى ،
والكمادات على وسطهم . الحياة العادية تتسلل من جديد إلى قلب المدينة ، والظائرات
الاسرائيلية تتابع تسللها إلى سماء المدينة ، وفي أية لحظة قد تطلق صفارات الانذار
صرخة أذان جديدة في فجر ملحمة الدم . إنها الحرب ، وها هو إنسان عربي مقاتل يعي
موقعه الحقيقي ، ولم يحدث أبداً أن أطلق أحد رشاشه حزناً على فقيد نحت الانقراض أو
احتفالاً بنصر (كما يحدث في أقطار عربية أخرى ما زال السلاح لديها من لوازم الأفراح
ودفن الموتى فقط لا غير) فالسلاح لصدر العدو ، والعدو فقط .

دمشق الحرائق تضيء منارة في ليل ذلنا الطويل ...

وعرس الدم في دمشق لا يمكن أن يخلو من نغمة باكية أسياسة ، فالحرب هي الحرب ،
والطبيعة البشرية لا تتبدل ، لكن النغمة الغالبة في سيمفونية الحرب السورية هي الوعي
الجماعي بأنه لا مفر من دفع ضريبة الدم من أجل الحياة بكرامة ، وذلك يتم بقبول واع
رزين أكثر من « يوفوريا » خطائية ...

في دمشق ، حمص ، اللاذقية ، بانياس ، والمدن السورية الصامدة كلها ، يواجه
المواطنون الحرب بنضج عربي تتكشف عنه نفوسهم يوماً بعد يوم . إنها الحرب تكشف
معدن الشعوب كما النار تكشف الذهب .

المهم أن خرافة الطيران الاسرائيلي الذي لا يقهر ، كما لو كان سرباً من طيور
الأساطير ، هذه الخرافة سقطت في تشرين دمشق مع أوراق الحريف . وخلفت في
شوارعها حطام الطائرات منحوتات وأنصاب مجد ...

• • •

دمشق الحرائق ، يا مدينتي الملتهبة ، المضيفة ، أينما كنا ، فكل رصاصة تُطلق
عليك ، تستقر في صدورنا ...

• • •

لك حبي ولي ذاكرتي

طالما دفعت بي حاجتي إلى الحنان ، لالتماسه
عند أشخاص كانوا يحاولون تدميرى .
- فان هورغ -

العقل لا يحكم القلب أبداً ، لكنه يصير شريكاً له
في جرائمه !
- ميتون ماكلوجلين -

دعونا ! لنقل ذاكرتنا بعبد مفعى .
- شكشير -

برلين ١٢/٨/١٩٧٣

وكن موتي الأخير* ..!

ولم يتراكم الغبار على وجهك في ذاكرتي ؛
ولم تكسُ الطحالب والأعشاب صورتك .
ولم يصدأ بريق عينيك .
ولم تصبح أيامنا راية منكسة منسية ،
نصف محروقة بعد معركة خاسرة .
ولم يصمت صوتك في حلقي .
ولم أضيعك في زحامي المجنون ،
ما زلت أقبض بيدي على يد ذكراك .
أتشبث بها في زلزالي ،
ما زلت تقطن تحت جلدي ...

أيها الغريب .
الصدق الذي يفجر اللغة
هو نفسه الذي يشلها أحياناً ...
وإلا لكتبت دائماً لك وعنك وحدك .
ومع هذا ، أحدثك باستمرار :
أسمع كلماتي متعبة وفائتة ،
كسعال طفل يقف في البرد خلف الباب :

* نشرت المقطع الأخير منها على الغلاف الثاني لكتاب «حب» - الطبعة الأولى - ونسيت نشرها بأكملها
يومئذ في الكتاب المذكور ١١

والباب ضخم وموصد .
أحياناً أتمنى أن أصب بنزفي في أحد شرايبك ،
فأكتب لك ،
أمد حروفي أصابعَ إلى عالمك ، (لفها بيدك) .
ولكن عبثاً أكتب !
أقول لك : الصدق المطلق لغم اللغة ...
إنه يطيح بمقالع الكلمات في الجو ،
ويهشم رخامها أمام زوايع وجعه ...

* * *

غيابك يغتالي .
وحضورك يغتالي ، لأنه عتبة لغياب جديد .

* * *

حينما نلتقي في الشوارع فجأة .
حينما نلتقي صدفة كما يلتقي الغرباء .
تخترقني صورتك ،
كرصاصة محكمة التصويب إلى جبهتي .
تماماً في منتصف المسافة بين العينين ... (حيث كان يخلو لك أن تقبلني) ،
وحينما أسمع صوتك من جديد ...
يخفق قلبي .

كجسد عصفور طار تحت الثلج مئة عام .
فوق محيطات العذاب :
ثم لمح جزيرة ...
وأتوق اليك ،
توق الموقد إلى النيران وخبز الفرح ،
وأتوق اليك ، وأتساءل
ترى هل الأخطبوط امرأة أحببت كثيراً حتى اللاراتواء
فمنحتها الآلهة عشرات الأذرع
وقدرة لا متناهية على الاحتضان ؟
يدهشي - حينما أراك

انني لا أملك سوى ذراعين ،
وانه لم يثبت لي المزيد منهما .

• • •

أنت يا أنا .
وحيثما أهدق في المرأة ،
أجد وجهك فيها بدلاً من وجهي ! ..

• • •

من الأعماق ،
من أعماق بُر الصمت المسكونة بهذين الشوق
من أعماق ذلك الجرح الذي لا قرار له ،
من أعماق بحيرات الذاكرة ،
ومياها المعتمة الغامضة ،
ينبض الشوق إليك ،
ينبض ، ينبض ،
مثل طائر أسطوري يقطن ظلامها بسرية مروعة ...
من أعمق الأعماق ،
من أعماق نهر الجنون ،
وطبول الذكريات تدق في قاعه ،
وورود النار والندم تنفتح على ضفتيه ،
من أعماق جحيم حي
وحبي جحيم توجك إلهاً للألم ،
أناديك ...
تعال امتلكني كالموت .
فليس لامتلاكه شريك أو وريث ..
تسلل إلى زحامي دون أن يلحظك أحد ، كالموت ...
خفيف الخطى سيد الساحة كالموت ...
خذني إليك فجأة كالموت ...
ضمني إليك كالكنز .
وكن موتى الأخير !

وصل الحب . رحل الحب

... كان لك اسم من الأسماء
عادي ككل الأسماء
فأسميتك « الحب » .
... كان لك وجه
عادي التضاريس ككل الوجوه
فررعت في إسفلته حقلًا من الأقحوان والبنفسج .
وصيرت ابتسامتك قوس قزح
وشعرك زوبعة بحرية
وأفاسك مبخرة الزمن الجميل ...
... كانت لك عينان
تحملان فواتير الهموم العادية ...
فأشعلت فيهما نيران العراق
وأضأت مصابيح فتورك
يجنون التحدي ،
وأيقظت ديكة شراستك
فقامت تعلن عن فجر قتالنا .
... وكان دمك الملل والتكرار
فصيرت شرايينك شوارع مهرجان ..
وكانت أيامك رقية متشابهة ،
مثل أسطوانات « جوك بوكس » عتيقة منسية ،
فصيرتها سيمفونية مثيرة

مثل أغاني حرائس البحر لـ « يوليس »
ونداء مجنيات الليل والفرح
بشعورهن المبتلة بالمطر
وأظافرهن الطويلة كأصواد ثقاب خرافية
يشعلن بها القمر والنجوم ...

لقد منحتك الحزن ،
وأطفأت غرور عينيك
إذ مسحتهما بزيت الألم المقدس ،
لقد منحتك وجع الصبح
وكنت ساقطاً في مجد الرتبة ...

علمتك كيف تستمتع بعراك طواحين الهواء ،
علمتك كيف تبني قصورك في الرمال .
وكيف تسكن معي بيوتاً من أوراق اللعب « الكوتشينة » ،
بعد أن كانت عماراتك الحجرية
هي كل ما تعرف ...

دمرت حصار أقراصك المنومة والمهدئة ،
وزرعت الأحلام والكوابيس في نومك الميكانيكي ...
انتزعتك من لحنك اليومي المفضل : ضربات الآلات الكاتبة ، والطابعة ، والحاسبة ،
لسكرتيرائك ...

وعلمتك موسيقى الشاطئ الآخر
في قيثارة الحناجر المذبوحة ! ..
وإلى سماء عينيك أعدت السحاب والمطر ...
وهدمت جدران ذاكرتك ، وأعدتك للبكاء ، والدهشة ، والانتظار ... وربما الصلاة !

لا تتحدث عن الندم
لا تحصى خسائرك .
لا تقدم تقريراً بأيامك الضائعة معي ،
يكفيك مني انني منحتك القدرة على الحب ،
أعدتلك أيها الضال في مفاوز الثروة والشهرة ،
إلى وطن الحب .
وأوقفتك على بابه
كما بقية رعاياه ، من البسطاء والدرائش والفقراء ،
حافي القدمين ، وعلى شفئك أنشودة شاعر جوال !

يكفيك مني ،
انني حررتك من مقعدك الهزّاز الدوّار الفخم .
ولو لعام ،
وأخرجت لك من تحت بزاتك الثمينة
جناحيك المنسيين
لتطير بهما شفافاً كفراشة من نور ،
معدباً وخافقاً كشراع ضال ،
يكفيك مني :
أنني ذكرتك بقارة الألم
الأوسع من قارة الرضى ...
وأن الشوق أهم من أسعار الذهب في البورصة العالمية ،
وأنك كَوْنٌ من الغابات والصواعق
والسماوات المضيئة والليالي الطويلة ،
ولست مجرد اسم في دليل الهاتف
له خمسة أرقام ... !

فليته كل شيء كما بدأ
بسعادة وامتنان متبادل ،

وكف عن سؤالي : لماذا ؟ ..
لست أنا التي أمضي ،
إنه الحب مضى ،
جاء ، وقضى فصوله الأربعة معنا
وولي
كما يولي عام ليبدأ عام ،
فالحب ليس ضيفاً ثقيلاً .
يقيم إلى الأبد .
إنه دورة من دورات الطبيعة ،
كان لنا شتاؤه وربيعه وصيفه وخريفه ،
وها هو يرحل ! ..
وكما جاء يرحل ، بخطاه الخفيفة كخطى « بابا نويل » .
حتى دون أن يترك آثار أقدامه على ثلوجي وبحاري ! ..

وصل الحب . رحل الحب .
تلك هي الحكاية ببساطة ،
فلنودّع حبنا بامتنان ، لمجرد أنه كان ...
ولنودعه بصمت وكبرياء ،
لا كما يودع الناس حاماً رحل .
بالبونات والورق الملون والزئبق
لنودعه بصمت كبير
فقد كان حباً كبيراً ! ..

صوفى ١٩٧٤/٢/٤

ثلج النسيان الأسود

(إلى ابتسام وأمير)

ذات يوم ، في بابل ، أشار « أمير » إلى كومة حجارة وحائط عتيق مهدم وقال :
« هذي بابل ... وهذي بقايا برج بابل الذي كان من عجائب الدنيا السبع . أليست هذه
البقايا القليلة مخيبة للآمال ؟ »

وركض خيالي المجنون في الصحراء يعيد تعمير كل ما كان ... وامتد شارع
« الموكب » .

واصطخبت المدينة بالألوان ...

وضحك الأطفال .

وانتصبت الجنائن المعلقة من جديد ، وسمعت شلالات المياه تتفجر ، والطيور تهب ،
والرياح ترفرف ...

ونخيل إليّ أنني أشاهد المرأة ، التي شيد ذلك كله لأجلها ،
وهي تركض عبر الأشجار .

ها أنا وحيدة تماماً في حقل من الثلج لا متناهي الأبعاد ..

وحيدة مثل فزاع طيور منسيّ

وقد احترق القمح وماتت العصافير

ورحل الرجل والبيدر ...

وحيدة مع ذلك البياض الزائع ، الشرس ،

المليء بالتحدي والمكر البريء .
المهيمن بمسوة سرية .
شيء ما في ذلك كله يذكرك في بك ...
(آه كيف يتدفق القلب الحزين ثلجاً الأسود
ويصير عمرنا حقلاً من الثلج الأسود الشاسع ،
قائماً وكثيلاً كالصدا !) ...
وكما أحاد خيالي تعمير بابل
ذات فجر ضبابي في العراق ،
ها أنا في حقول ثلج لبنان أعيد تعمير مدينة حبنا ...
وأستحضرك ... أنت يا ضائعاً كشهقة ، وحزيناً كجمرة .

* * *

أيها الشقي ،
قرصان النسيان قد مر على بواخر حبنا سبع مرات
وهولا كزمن سرق كنوزنا وهداياتنا ،
وتيمورلنك أحرق كرمتنا ورمى إلى النهر بصورنا ورسائلنا
فاحمرت مياهه ..
وقلتُ انتهينا .
وقالوا انتهينا .
وها أنت تمد أصابعك الدقيقة نحوي ،
ثم تغرسها في قلبي مرة واحدة كخمس خناجر ...

* * *

حين يغمر على الذاكرة ،
ويرحل الصحو عن مفاوز القلب ،
يزهر الفرع العتيق ،
وأصود قادرة على النظر إلى وجهك

دون أن يتزف جرح سري في روحي ...
وها أنت تزدهر . تزدهر
تصير حقلاً من الأقحوان .
ها أنت تسري في الأرض أزهاراً بنفسجية اسمها « لا تنسي »
(Forget me not) من قال لك إنني نسيت ؟ ...
تعال أيها الشقي ، تعال نظير ، نظير ،
نصير حفنة واحدة من الثلج الشفاف
ونحملنا خيوط النور والفرح لنهطل
من الأرض إلى السماء ..
آه ! عبثاً نعاود الطيران
عبثاً نحاول التحليق عن أرض آثامنا ،
ولإساءاتنا المتبادلة حبال ستظل تشدنا أبداً إلى مستنقع التيه ...
إن ثلجنا الأسود في الداخِل يلتهم بياض العالم كله ...
الثلج الأسود يفور من عينيك ، من فمك ، من أذنيك ، من جسدك كله .
لا يبقى من لحظة الرؤيا البيضاء
سوى هيكل العظمي المزروع أمامي :
والثلج الأسود يتفجر منه .

وحيدة في ثلوج لبنان .
ها أنت تضرب عصاك في صحراء الثلج ، يصير لونها أسود
ها أنت تمسني بعصا حزنك السحرية ،
ويبلل المطر قاع عظامي ...
فلتكتف مثلي بلحظة رؤيا عابرة ... هذا كل ما تبقى منا ولنا ...
والخيال قد يعيد بناء بابل لكنه لن يعيد الحياة إليها ...
لا تعتب !

على زجاجك الموصد هطلت أكثر من مرة
وكنت أضمحل كل مرة دون أن تمد يدك لتلمني اليك
... وكنت دوماً تبكي رحيلي دون أن تحول دونه !

لماذا ، بعد أن علمتني أن أعيشك وهماً وتعيشني حُلماً
عدت تبحث عن ماهيتي وحقيقتي .. ؟

...

من جديد أسقط في الرؤيا البيضاء ،
وأنت الذي صوته صفير البواخر الراحلة المسكون بالحزن
تسألني : « من أنت ؟ »
وتنتشر حولك في المدى الأبيض سبع نساء كلهن أنا ! ..
هل تذكر ؟
مرة في دمشق قتلتني ،
وفي ضوء القمر دفتني وبين ثلوج النسيان طمرني
وظننت أنك استرحت ... لم تكن تدري أنه كان عليك أن تقتلني سبع مرات !
سبع مرات ! ..
أفعى تسعى في لحم ذكرياتك ، لا شفاء مني ! ..

...

لن أكون لك ،
وكي أمعن في إيلاملك
لن أكون لسواك أيضاً ! ..

...

أيها الشقي ،
كيف كان كل ما كان ؟ ..
كيف أبحرنا في نهر الفراق الذي لا عودة منه ؟ ..
لم أعد أذكر ..
كنا نصف جادين ، نصف هازلين (هكذا الفواجع دائماً)
كنا نلهو فوق ثلج عمرنا قبل أن يتسخ ،
وتسلينا بيناء سور
ثم اكتشفنا أننا بنينا السور فيما بيننا ...

ومن يومها وأنا أناديك وأنت تناديني من خلف السور ..
آه كيف استحالت النكته البيضاء إلى ثلج أسود !..

• • •

حين جاء دوري :
بهدهوء وإتقان قتلتك سبع مرات .

• • •

لم أعد وحيدة فوق الثلج .
جاء الأطفال : وها هم يلعبون .
يقتربون مني ، يتأملوني ويرقصون حولي منشدين : « المرأة الثلجية ، من صنّعتها ؟ ! »
ثم فجأة يركض أحدهم إلى أمه باكياً : « ان دمية الثلج تبكي ! »
أمه ، لا تصدقه ...
وأنت : حتى أنت لم تصدق !..

• • •

حين جاء دوري :
بهدهوء وإتقان قتلتك سبع مرات :
تركت دمعك يسيل فوق جبال حقدي البيض نهرأ مشتعلا قاني الحمرة .
واستحميت بدمك وشربت واسترحت ...
استرحت ؟
لا .

من يومها وأنا ما أزال أطارذك في دهاليز الكوايس
التي فتحت أبوابها اللامتناهية والثلج الأسود يفور فيها ...
غداً أقبض عليك أيها الراكض داخل كوايسي وأحلامي ،
وبهدهوء وإتقان :
أقتلك من جديد سبع مرات ...

دبيو بالروشة - ١٩٧٣/٢/٢

سأحبك ... ريثما تطلق الحياة سراحي !

يا غريب ...
في هذا العالم المسكون بالخيبة والرعب
ماذا تبقى لنا سوى أن نحب ؟ ...
في هذا العالم الهرم بالحروب وحكايا القتل
في هذه الكرة الأرضية
السابجة في بحر من الدماء والخيبات والأطفال محروقي الحدود
ماذا تبقى لنا غير الحب ؟ ...
في هذه المدينة الصحراوية العطاء
حيث تتساقط كلمات أصدقائنا المرائية
وجسورهم المملوذة إلينا في فضاء وحشتنا
مثل ريش طيور ميتة ...
وفي زحام الشكوك والعتب
وأقنعتهم وزيفهم وأمنياتنا المتطفنة
نشعر بعري القلب الذي لا تدفئه قفازات المجاملات ...
وحين نرفضهم جميعاً ونرفض تاريخنا معهم
ماذا يتبقى لنا غير الحب ؟ ...
وفي زحام الأيدي المصفقة لنجاحنا
والأيدي المصفقة لسقوطنا
- ربما بحماس أكثر -
وفي حلبة السكاكين ،
التي يرشقنا بها أولئك الذين ادعوا صداقتنا مرة ،

ونخلوا عنا لأننا لم نفشل ،
ماذا يتبقى لنا سوى الحب ؟ ...

* * *

« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تدوم أكثر من أسبوع » ...
ربما ... ولكن ... أسابيع وأسابيع ...
وحبك رمى بمرساته في أعماقي ...
وعمري أضحي حينما تغيب
غرفة انتظار في مطار مهجور ،
كفت الطائرات منذ زمن طويل عن المرور به ..
يختبيء الصمت الباكي خلف مقاعدها
وأحجارها ونوافذها وغربانها ...
وجسدي شدّ إلى عقربي ساعة
يزحفان بي يبطء فوق أرض الانتظار
المفروشة بحطام فناجين القهوة وأعقاب سجائر مشتعلة ...
وحين تنجلي
يصير العمر بيدر فرح ليلة الحصاد ...
لماذا أنتظرك منذ عرفتك
بلهفة محكوم بالاعدام عصبت عيناه ...
ولم يبق له ما يحلم به
غير لحظة سقوط المقصلة في ذاكرته ؟
« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تدوم أكثر من أسبوع » ...
ماذا نسمي ما يدور ؟ ..
وذلك الجرح الذي بدأ يتزف بصمت وسرية .
كما تنزف جدران الأقبية غير المكتشفة ؟ ...
وهمساتنا المسروقة التي نرمي بها لصمت الحانات الجبلية
كما يرمى بأطفال الخطيئة على أبواب الليل ..

بسرية وبخزن كبير ؟
ماذا نسمي هذا كله ؟

• • •

« الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء مرحلة المراهقة ...
وقد تجاوزناها ...
أيها الشقي ، لك أقول
الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء احتضارهما ... ونحن محتضران ...
أيها الشقي ، تهدر الزمن كما لو افك تملكه ...
لحظات لقائنا تركها لمزاج الصدفة
كأن الزمن متسول يقبع أمام بابك .
من آن لآخر فلنعد أطفالاً رغم احتضارنا ...
نحب بلا ادعاءات ونحزن بلا كبرياء متعالية .

• • •

يا غريب ، ترى أين أنت الآن ؟
أعني ، كيف يمكن أن تكون في مكان آخر ،
وأنت تقطنني هكذا وتكونني ؟
أفتقدك ؟ لا .
أكذب إذا قلت لك انني أفتقدك ...
كيف أفتقدك وحضورك ما يزال يفترسني ...
إني أفتقد غيابك ...
أشتاق إلى رحيلك عن جسدي وأعصابي وكياني
وأذني وذاكرتي وغدي ...
أمنيائي شريط من أصابع الديناميت
قد عَصَبَ بشدة حول جمجمتي ،
وأحس بحديثك الليلة فتيلاً اشتعل فجأة .
وأخذ يفجرهما لإصبعاً بعد الآخر على التوالي ...
إذن تريد أن أكون معك ولك ؟ ...

تريد أن أخطف كل شيء ورأني وأرمي بكل شيء
لآتي إليك عارية من الماضي والمستقبل ؟
لا .

فليظل الشريان النابض نصف المقطوع
معلقاً بين الحضور والغياب ،
وليظل النزف العذب
مستمراً كبركان حي
لا ينفجر كي لا ينطفئ بعد انفجاره ،
وانما يظل يحقق هكذا بكل صخوره وأشجاره
مثل قلب حي نابض وسط موات الطبيعة ...
ربما عبثاً أهرب منك
لكنني سأظل أهرب كي تظل تحبني !
أريد أن أشتري حبك ولو بفراقنا
لأن من لا يحب هو ميت مع وقف التنفيذ ...

• • •

لماذا يدهشك انني لم أقل لك قط : أحبك ! ...
ولماذا لا يدهشك انني لم أقل لك ولو مرة : أنا أتنفس ؟
ما الفرق ؟ ...

• • •

أذكر اسمك ، والليل يجلد المدينة بالمطر والرياح والوحشة ...
أذكر اسمك ، وأنا أركض في حلبة العمر السوداء
حيث العلاقات مع الآخرين مثل مسيرة في حقل مزروع بالالغام ...
أذكر اسمك ، حينما تصير بشاعة هذا العالم
قميصاً من الشوك
لا ندرى كيف نخله ..
أذكر اسمك ... وأنا في معتقل الضجر
أنتظر أن تطلق الحياة سراحى ...
أذكر اسمك ... لأنه تعوينتي ... وصلاتي الأخيرة ...
وملجأى الوحيد المتبقي في أرض الرماد والثلوج ...
ومهما حدث ... ستظل أقرب إلي من طلقة نارية تحترق جيبي ...

كنا اثنين : أنا وحزني !..

هل أملك إلا أن أكتب عنه ؟

كلكم يعرفه ويحبه (ليس بينكم من لم يحبه ذات يوم على الأقل) ، وليس بينكم من لا يحفظ ولو سطرًا من أشعاره . وأنا أعرفه منذ صغري ، منذ شدتني إليه رابطة الدم والقربى ، وأحبه منذ وعيت أبجديته .

هل أملك إلا أن أكتب عنه ، وأنا التي عدت للتو من لقائه ، وخلفته في المستشفى خرجت إلى الشوارع وقد نسيت عنوان بيتي ؟..

مثل نمر فضي كان ساقطاً في فخ الفراش الأبيض والأغطية البيض والجدران والبيض والسقف الأبيض ...
وصار الأبيض عندي لون الحزن !

• • •

هل أملك إلا أن أرتمي على أول كرسي في أول مقهى ، وقد نسيت طقوس التماسك التي أتقن ممارستها ؟ ..

كانت هناك منضدة أمامها كرسي واحد . لم أجلس إليها . اخترت منضدة لشخصين ، فقد كنا اثنين : أنا وحزني . منذ شاهدته كالنمر الفضي الجريح صرنا اثنين متلازمين : أنا وحزني .

وجلس حزني تجاهي . تأملني قليلاً .
ثم أجهد الحزن بالبكاء .
وبقيت صامتة .

• • •

هنا أنا أمد أصابعي المتعبة إلى صدري كالمخالب ، أنتزع من جوفه قلبي ، وأضعه
أمامي على المنضدة ، وأسلمه القلم وأتركه يكتب ...

فالحزن حين يستولي على القلب يقصر العقل عن رسمه ... ان « عقلنة » الخوف
الكبير مستحيلة ...

وما أعظم خوفي وقلقي ... وأملّي ! ..

* * *

كانت الاناييب تخرج من ذراعه اليسرى لتضخخ إليه القوة ... وكانت يده اليمنى
— التي بها كتب كل ما قرأتموه وأحببتموه — سجيئة يحيط بها قيد قياس ضغط الدم
بأربطته المطاطية ... وكان له وجه نمر سقط في فخ صياد غامض المزاج ...

حين رأيته فتح عينيه الزرقاوين حتى آخر مدى في أفقهما وقال لي : « هذا ثمن
الجهاد يا غادة ... » .

أردت أن أقول له أشياء كثيرة ... أن أمسك بيده لنعود إلى مدينتنا دمشق ، وإلى
بيوتنا في « ساحة النجمة » ، وإلى ذلك الزمن الأكثر حناناً وهدوءاً ومرحاً .

أردت أن أقول له : « ولكن هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟ »
لكنني لم أقل شيئاً لأن الشوك نما فجأة في حلقي ، الشوك والملح ... وفي عيني
انعقد سائل ناري لا يهطل كالدمع ...

وكرر مرة ثانية بصوت متعب : « هذا ثمن الجهاد يا غادة ! .. »

* * *

لقد قرع القدر باب صدره ، وريح المرض جولة ، جولة واحدة فقط لا غير ،
المهم ألا يريح المعركة ...

ولذا ،

أناديكم أيها الطيبون والبسطاء والعشاق ، أناديكم يا من لا تزالون تعرفون الصلاة
والبكاء ، صلوا لأجل أن يريح المعركة ، اغسلوه بالمحبة ، فالمحبة زيت الشفاء المقدس ...
ولتدخل صدره صرختكم لمسة حنان وعافية ... ولتملأ الجوارح كهارب لهفتكم
وحبكم !

على بابهِ عبارة « ممنوع الدخول » .

ولكن زيت المحبة يضيء عبر الأبواب كلها ، ويخترق اللافئات كلها ...
« ممنوع الدخول » ؟

لا تصدقوا ذلك ! .. فلنعب صرختنا إليه . ولنغسل وجهه المحموم بدموع المحبة ...

• • •

« هذا ثمن الجهاد يا غادة ! »

ولكن ،

هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟ !

نعم يستحق .

ليس قليلا أن يقدر شاعر على جعل الشعر كالحيز .. يحبه الجميع ويتداوله الجميع .
ليس قليلا أن تُخرج الشعر من لفائف التحنيط لتطلقه مع الشمس إلى العيون كلها ...
وتجعل لغة الشعر هي لغة القلب لا لغة محذلقى المجمع اللغوي والكتب الصفر (التي لا
تتفوق أكثرها غير الفئران) .. !

ولكن هل يستحق الأمر هذا الثمن ؟

لا . نعم . لا ونعم .

• • •

إن أحزان الشاعر لا تضيع مع الزمن ، بل يخترنها القلب حيث تنمو وتنمو في
الظلام وبسرية مثل أشجار الأساطير ، ويصير القلب غابة للحزن والعين مرآة للذكرى ...
وفي عينيك لمحت تاريخاً من الأحزان ...

آه ! هل كان يمكن لغير قلبك أن يمرض ؟ وأنت الذي كنت دوماً قلباً يرتدي
التياب ويسافر ويحب ويكتب .

• • •

أليس قلب الشاعر هو قلب العصر ووجدان أمته ؟ ..
ألا يخترل قلب الشاعر كل زلازل عصره وكل أوجاع أمته وكل رؤاها ؟ ..
هل يدهشنا أن يهدد قلبك بالإضراب لكثرة ما حملته وحملناه ؟ ..
هذا إنذار يوجهه جسدك إليك ، مطالباً بأن ترحمه ! .

لا تصنع بليله . نعم أصغ .
نعم ولا .

. . .

اليوم . حين شاهدت هكذا أيها الأخ الكبير ، مقيداً إلى فراش المرض وأنت فرس
غابات الفرح والعافية ، شممت بقلبي يقرع مثل طبل جن صاحبه ، يضرب في جوفي
بلا رحمة كجناحي طائر يريد أن يهرب عبر قفص ضلوعي وعبر النافذة كي لا يرى ...
لأنه لا يريد أن يصدق ما يرى ...

اليوم ، حينما شاهدتك ، تمنيت لو أمتحك قلبي ! ولكن ما جدوى قلبي المثقوب
بالأحزان مثل قيثارة لم تعرف غير أناشيد الوجع وصفير رياح القسوة والغربة ؟ !
قلبي الذي سطا عليه الألم ، وسرق من دهاليزه نجوم الفرح وعصافير البراءة ،
وخلفه مضخة صدئة مسكونة بالضجر واللامبالاة ، والتروات ،
ما جدواه لك ولي ؟ ..

. . .

حين تقرأ هذه السطور ، أتمنى أن تكون كما عرفتك دائماً ، فرس العطاء والعافية ...
وأتمنى أن تسألني باستخفاف : « أنا بخير . لماذا هذا القلق كله ؟ » .
وسأقول لك : « كنت أحلم . وانتهى الكابوس ! »

للقلب ، صرخة بالابجدية وللذاكرة ، شمع أحمر

لا شيء يُرَسَّخ الأشياء في الذاكرة ويثبتها ،
كالرغبة في نسيانها .

— ميشيل دي مونتين —

لبعض الذكريات قوة الحقيقة المعاشة ، وهي
أكثر واقعية من كل ما يمكن أن يحدث لنا ثانية .

— ويلا كاتر —

ما كان احتمالاً صعباً ، صارت ذكراه حلبة ...

— مثل شعبي برتغالي —

قد تكون الذاكرة هي الفردوس الذي لا يستطيع
أحد طردنا منه ، لكنها أيضاً قد تكون الجحيم
الذي نعجز عن الهرب منه .

— جون لانكستر سيالدينغ —

كتابات على دمعة

غرقت نظراته الخبيرة في عيني المرهقتين المسكونتين بالإعياء ، وبعد طول تأمل قال لي البروفسور طبيب العيون : « أريد منك إجراء تحليل لدموعك ! » كانت هذه أول مرة أسمع فيها عن « تحليل الدموع » . سمعت عن « تحليل الدم » وغير الدم ... أما الدمع ، فلا !

في الطريق نحو المختبر كنت خائفة . ماذا سيكشف لهم تحليل دموعي ؟ بل وكيف يحصلون على الدمع مني ، وأنا البخيلة به حتى في جزر وحلتي ؟ ! لقد انهار شيء في أعماقي منذ زمن ما ، وسد درب الدمع وطمس معالمة ، فكيف أبكي في مختبر التحليل إذا طلب إلي ذلك ؟ ولكن ، لم لا ؟

إنها فرصة رائعة للبكاء بعد طول احتباس لمطر القلب ، وسأبكي دون أن أحتمل ضميري أو لإرادتي أي وزر . تخيلت المشهد على الوجه التالي : يقول لي الممرض « خذي هذا الأنبوب ، ابكي فيه واملثيه دمعاً » . سأنتهز الفرصة ، وسأبكي طويلاً طويلاً ... فهناك لحظات في عمري مررت بها راكضة وقد أشحت بوجهي عنها ، وهي التي كانت تستحق مني أعواماً من البكاء - بكاء فرح أو بكاء حزن - فلأبكي لأجلها دقائق على الأقل ، وبأمر من الطبيب ! سأبكي ... وحتى حينما يأتي الممرض ويقول لي أن الأنبوب الذي ملأته بالدمع طاف ، فلن أرد عليه وسأملأ له إبريقاً من الدمع (ترى هل سيعطونني أنبوباً ملوناً مزخرفاً كتلك المدامع الأثرية القديمة ، كتلك التي أهداني إياها صديقي الشاعر المرحوم توفيق صايغ ذات مرة ، ولما سألته لماذا ، قال : « كي تبكي من أجلي ... سيأتي يوم تبكين فيه لأجلي » . وضحكت منه طويلاً يومئذ ...

وحتى يوم سرقة الموت ، ظلت « المدمعة » الهدية جافة ، فقد كان الدمع قد غاض في
رمال قلبي المقفرة) .

. . .

ولكن الأمر كان أكثر بساطة في المختبر . لم يطلب إليّ أحد البكاء ، جاؤوا
فقط بقطعة قطن ، وحكوا بها جفني فانهزم الدمع . نقطة واحدة كانت تكفيهم ،
ولكنها لم تكن تكفيني ! وحين غادرت المختبر ، فرحت لأنها كانت تمطر ولم يكن
في وسعي أن أوقف مطر الدمع في حنجرتي المألحة كمغارة محشوة بالشوك ...

. . .

قال لي الرجل : « تعالي بعد أيام من أجل نتيجة التحليل » .

وعشت أياماً شبه قلقة ... ترى هل سيقراًون ، في دموعي ، تاريخي كله ؟
تاريخ أحزاني كلها ؟ .. هل سيقراًون أيضاً أسماء ... وتواريخ ؟ ... وهل ستراعى
للمحلل ، تحت المجهر ، وجوه ووجوه ، وجوه أمسكت بها ، ووجوه راحت مني في
زحام ذلك الزمن الحزين الهارب ؟ ..

هل سيقراً في دموعي اسم دمشق ، مدينتي التي منحتني الصبا والعناد يوم ودعتها
وقلقت بنفسي في مستنقع الغربة ؟

ذلك الرجل المكب بوجهه الآن فوق عدسة المجهر ، هل سيقراً في دموعي حكايتي ،
وهل يرتجف جسده ضحكاً مني ، من غباء أسميته « حباً » ، وانهايات أسميتها
تجارب ؟ . ترى هل ينبت الذين نحبهم داخل دموعنا ، وهل يسبحون في بحرها المالح
كما الأسماك تسبح في أعماق المحيط ؟ .. ترى هل تسجل دموعنا زلازل أعماقنا
وفواجعنا ، بحيث تبقى دوائرها مرتسمة ، هادئة حيناً وصاخبة حيناً ، كما يمزق الزلزال
وجه مياه البحر ويترك فيها بصماته ... وهل ا . وهل ؟ .

. . .

وإذا زرع المحلل دموعي (كما يزرعون الدم ويحللونه) ، فوجه من سينبت
فيه ؟ .. اسم من ؟ .. اسم « أين » ؟ .. اسم أية مدينة غير دمشق ؟ . ما لون الدمع
تحت المجهر ؟ .. المحزونون مثلي ، هل يمكن للدمع أن يكون له غير لون الدم ؟ ..

تري هل سيكون لدمي صوتٌ تحت المجهر ؟ .. صوت شلال التمرد وصرخة الحرية والشهية إلى الحياة ؟ .. ذلك المحلل المسكين ، ألن تخيفه قطرة دمع واحدة من عيني بكل ما تختزنه من أهوال وحيّوات وجنون وأهواء ونزوات ؟ ... بكل ما فيها من لون النزف وصوت الاحتضار والولادة في آن واحد ... ورائحة لحظة التقاء الشروق بالغروب ، ساعة الذئب ؟

وإذا كانت دمة واحدة تختصرني وتكشفني تحت المجهر ، ألن ينطلق المحلل هارباً راکضاً في الشوارع وقد نبشت بجراحي جرحه ؟

• • •

في اليوم الموعود ذهبت لاحتضار نتيجة التحليل . تخيلت انه سيدفع إليّ بعبدة مجلدات فيها حكايا عمري ، التي لا يعرفها أحد غير دمي ! .. وفوجئت بصفحة بيضاء ، وعبارة واحدة تتوسطها :

« السمع خال من كل شيء » !!!

لم تذكر الورقة ، التي تحمل نتيجة تحليل دموعي ، أي شيء غير حساسيتي لاحد المركبات الكيميائية ... أما بقية « حساسيات عمري » فلم تلاحظها .

ما أشد قصور العلم والمجهر والتكنولوجيا وأهله أمام قطرة دمع إنساني واحدة هي بحر من الأسرار ! لا ، لم تذكر نتيجة التحليل أية أسماء ...

أية حكايا ... أي توق ... أي هذيان ... أي جنون . أية سكية . لم تذكر أية تواريخ ،

حتى ولا تواريخ كهذه مثلاً :

٥ حزيران ١٩٦٧ .

وغیرها .

الغابات تموت منتحرة

عاما بعد عام ...

وأنا أكتب ، وقلمي يجرح لحم الورق ، لم أستطع قط أن أنسى أن الورق كائن حي ... أن هذه الورقة التي أخط سطورى عليها كانت يوماً شجرة حية جميلة خضراء ، تمد قامتها نحو الشمس وتمنح أغصانها للطيور وظلها للأطفال والمتعبين ... ربما لذلك ، أجد صعوبة خاصة حين أضطر إلى تمزيق ورقة ما ، أو رميها في سلة المهملات ، وأشعر كأنني أسمع صوتها يشكو محتجاً أو متألماً ... وحينما أكتب (او اقرأ) أشياء مملة ، يخيل إليّ أن جسد الورق ما يزال حياً وأنه يتلملم تحت الكلمات رافضاً محتجاً ... وحين أقرأ كلمات مأجورة أو عميلة ، يخيل إليّ أن الورق يحاول عبثاً أن يتخلص من تحت الكلمات ، مطلقاً ساقيه للريح ، عائداً إلى غاباته الأصلية حيث النقاء والبراءة الأولى ، بل انني أرى للورق تحت مثل هذه المقالات وجهاً حزينا كوجه غانية أرغم جسدها على عمله ، وظل قلبها يتوق إلى الانعتاق من قدارة واقعه ...

* * *

منذ كنت صغيرة وتعلمت في المدرسة أن أصل الورق شجر ، ومنذ كبرت وشخت وتعلمت أن للكلمة قدسيته ، صرت أحس بنوع من الحجل والاحترام أمام الورق ، وربما بشيء من الاعتذار للشجر كلما تناولت ورقة لأخط عليها ... إذ ليس في التاريخ « مادة » انتهكت كالورق ، ليس في التاريخ جسد حيّ احتمل فظاعات الإنسان كالورق ... فعلى مر العصور كان الورق مستودعاً لأكاذيب البشر وحكايا مجازرهم ، وصار يستعمل وسيلة للاحتيال ، وضربت به الأمثال حتى قيل « حبر على ورق » : ولولا بعض العباقة الإنسانية أمثال ابن خلدون وشكسبير وبيتهوفن وغيرهم ، الذين كانوا يجيئون بين عصر وآخر ويرطبون وجه الورق المحروق بالإنسانية والابداع ، لأطلق الورق على نفسه النار ولما انتحراً ... (بل انني كلما سمعت بأن النار شبت

في غابة دون أن يعرف أحد لماذا ، يخيل إلي أنني أعرف ، وإن الغابة قررت الانتحار ،
وإن ورقها قرر الموت كي لا يستغله الإنسان ويسخره) .

. . .

ربما لذلك كان يدهشي دوماً أن الورق أرخص من الذهب والمخمل والقراء ،
وأرخص حتى من الجوارب النسائية ومناشف البحر والمظلات !

وربما كنت الوحيدة التي فرحت بارتفاع أسعار الورق (رغم أن زوجي ناشر) ،
فقد شعرت بأن هذه « السلعة » بدأت تأخذ قيمتها المنسية منذ عصر ورق « البردي »
إلى عصرنا ...

وحين قرأت منذ أسابيع في جريدة « الميرالد تريبيون » أنهم يفكرون جدياً في
وضع أسعار الورق في بورصة السلع العالمية وفي الصفحات الاقتصادية كل يوم ،
أسوة ببقية حاجات الحياة الضرورية والهامة كالقمح والقطن والمعادن والبتروول ، شعرت
بالغبطة ...

فإنساننا المعاصر ، الذي يقيم الأشياء — للأسف — بقدر سعرها المادي ، قد
يكشف فجأة عن طريق فواتيره أن الورق حاجة حيوية هامة ... وإن الكلمة قد تكون
رخصت في عصرنا لكن الورق قد ارتفع ثمنه ! وإن الأكاذيب صارت تكلف تقوداً
أكثر ... ومن يدري ؟! فقد يشعر لمرة أن الورق هو ابن النقاء والغابة — البراءة ، فلا
يسكب على وجهه من سطور إلا ما يتآلف مع النقاء والبراءة !

تأملات أدبية في اختراع علمي !

مثل إصبع ديناميت ، انفجر في رأسي خسير قرأته في إحدى المجلات العلمية المستقبلية التي أهوى مطالعتها . يقول : تم اختراع طريقة لنقل الذاكرة من شخص إلى آخر ... فقد استطاع أحد العلماء إثبات أن الذاكرة سائل دماغي . وأن نقله من شخص وحقق دماغ شخص آخر به ، يؤدي إلى اكتساب الشخص الآخر كل ذاكرة الأول صاحب السائل ...

الفكرة أكثر إثارة من هبوط أول إنسان على سطح القمر ...

فقد كان دماغ الإنسان منطقة محرمة على جميع الناس ، كل إنسان إشارة استفهام متقلبة . دماغه صندوق مقفل لا أحد يستطيع اقتحامه . كل ما نعرفه عن الآخرين هو ما نراه من سلوكهم الخارجي ، وكل ما نفهمه منهم هو ما يطفو على سطح العلاقات العامة والخاصة من كلمات وأفعال ... لقد اقتحم الإنسان القمر والنورة ، ولكنه ظل عاجزاً عن اقتحام ذلك الصندوق المغلق المسمى بالدماغ ... لقد استطاع الافلات من الجاذبية الأرضية والدخول في الفضاء الخارجي . ولكنه ظل عاجزاً عن الدخول إلى الفضاء الداخلي للإنسان آخر ... رواد الفضاء وعلماءه الذين انتهكوا حرمة (المجهول المسحور) الذي كان اسمه قمراً ، ربما كانوا اليوم يعرفون عن أسرار الكواكب ومداراتها ، أكثر مما يعرفون عما يلور في الرؤوس المغلقة السرية لحبيباتهم وزوجاتهم وزملائهم في العمل ...

ذاكرة الإنسان ، تلك المنطقة المحرمة الكبرى ، هل استطاع العلم أيضاً التفاض إليها بإبرة صغيرة تمتص عوالمها بكل بساطة ؟ ...

• • •

لقد ظلت ذاكرة الإنسان طيلة دهور مثل صندوق « باندورة » ، نفضل إخلاقه

ونسيان ما فيه على المغامرة بفتحه وإطلاق ما يحويه من أسرار ، سرية حتى الشر ، منسية حتى الوجع ... إن أحدا في هذا العالم لا يعرف حقاً انساناً آخر ما دام لا يعرف حقاً ما يدور داخل ذلك الصندوق السحري المغلق بإحكام — أكثر من أية معليات متقنة الصنع — المغلق منذ البداية بنجم الـ « Privacy » . بل إن الإنسان نفسه يكاد يجهل أحياناً ما يدور داخل رأسه هو ، في ذلك الصندوق الدماغى المحكوم بحمله المسمى بالذاكرة ، والبعض يقضي بقية عمره كي يفك ألغازه ضارباً باب « دلفي » بأصابع دامية مكسورة الأظافر . وفي الأعلى عبارة سقراط « اعرف نفسك » ... ولكن كيف ؟ ... وتلك الذاكرة القاسية ، التي لا تنسى شيئاً ، وتتواصل مع اللاوعي تسكب فيه من وعائها بلا انقطاع ، وتهجر العقل الواعي لأنه سيحلل ويرضى ويرفض ويحكم بالاعدام على بعضها ... آه كم تخشى الذاكرة العقل الواعي ، لأنه حيادي وواع ومتزن ومتفهم لشروط الدنيا الموضوعية ، وكم تلجأ الذاكرة إلى العقل اللاواعي . ذلك « الوسواس الخناس » اللامبالي بكل المواصفات الموضوعية للعالم الخارجى ، ذلك الذي ييث رسائله عبر الكواييس والأحلام حتى يُسكت عقلنا الواعي صوته ؟ ...

• • •

الذاكرة ،

تلك التي نتحالف والزمن والآخرين على طمسها ، ماذا يحدث حين يستطيع عالم ما استخلاصها من برائتنا ، وبرائن سرية صندوقها الأزلي المقفل ؟ ...

وإذا امتصت إبرة العلم ذاكرة طفل ولد للتو ، وزرعت ذاكرته على شاشة دماغ إنسان كبير يستطيع أن يعبر عما يعلمه ، هل سينقل لنا صورة عما عاشه الطفل في الرحم ؟ الدفء والظلمة اللزجة الحنون ، وهل ، وهل يقول لنا شيئاً عما « قبل ذلك » ؟ .. أليس حلم الكتاب والفنانين جميعاً أن يلتقطوا ولو برقية وحيدة عما حدث « قبل ذلك » ؟ ... ألم يقل الشاعر الرائع « ووردثورث » أن الفنان هو طفل لم يفقد ذاكرته نهائياً ... وهو بالتالي ما زال قادراً على التواصل مع قوى ما وراء الطبيعة ، وأسرار الوجود ، وعلى رؤية الأشياء بعين

• استعملت العبارة الانكليزية لعدم وجود مرادف عربي لها ، وعبارة (العزلة) أو (السرية) ليست دقيقة ، ولعل السبب في عدم وجود عبارة عربية لها يرجع إلى عدم وجود مفهوم للـ (Privacy) عند العرب ، تماماً كعدم وجود مرادف أجنبى لكلمة « طرب » العربية !

جديدة في آن واحد ؟ ... ماذا يحدث لنا لو تكلم طفل لحظة ولادته ، أي لو نطقت
المعرفة المطلقة والعبقرية الكلية ؟

...

وإذا امتصت إبرة العلم ذاكرة شهيد مات للتو ولم يزل دماغه حاراً ، شهيد عظيم
كفسان كنتاني مثلاً ، ألن يتطوع الملايين ليحقنوا بذاكرته . ولتكون حناجرهم صوتاً
لتلك الذاكرة الخالدة ، وليعيدوا تاريخ نضاله وحياته الغنية بالحب كما تعيد ابرة الحاكي
بكل فخر إحدى مقطوعات بيتهوفن ؟ .. وهل يمكن لمن امتلك ذاكرته إلا أن يتابع دربه
وحياته ، وليكون من جديد كل ما كان من قبل فيها ؟ ...

وبدلاً من « نقل الدم » ، سنسعى الكثير عن « نقل الذاكرة » ...

كثيرون سيتطوعون لنقل ذاكرتهم ، مجاناً ! ... ما أكثر الذين يتمنون لو يفقدون
ذاكرتهم ليستريحوا ... فداخل ذلك الصندوق المغلق ، تفرقع سياط الوجع . وتفور
أسراب نحل الماضي ، وتلسع وتلسع . كثيرون سيتبرعون بذاكرتهم . ولكن من
يرضى بأن تنقل له ذاكرة إنسان آخر ؟ ... من يرضى مثلاً بأن تُنقل له ذاكرتي أنا .
وإذا امتصت الإبرة ذاكرتي ، وزرعتها في دماغ إنسان آخر . دفعة واحدة وبلا
نقصان ، وبكل ما فيها من وجع وتوق وأحزان وجنون ووجوه ممزقة وأحلام مشردة
وشهية للفرح ونزوات مجنونة وأسرار وأسرار ، ألن يجدوه في اليوم التالي منتحراً ؟

...

ترى ما لون سائل الذاكرة ؟ وهل لذاكرة الناس جميعاً اللون نفسه ؟ ... هل
يمكن أن يكون لون ذاكرة بيتهوفن الإنسان مثل لون ذاكرة هتلر ونيرون مثلاً ؟ ..
الذين يفورون شوقاً للحياة والعطاء أي الثوار والعشاق ، هل يمكن لذاكرتهم إلا أن
تكون كسوائل البراكين منصهرة ونارية ؟ ... وحينما نموت ، أتموت ذاكرتنا
معنا ، أم تراها تتابع حياة مستقلة بها ؟ تحل في كائن آخر ، أو تنتقل إلى التربة والريح
والليل ، وتصب في نسغ الكون لتساهم في ابقاعاته الخفية ؟ ترى هل النجوم هي ذاكرة
العشاق ، وكلما مات عاشق تحثرت ذاكرته في السماء نجمة تضيء ؟ ...

وحينما يموت الشهداء ، ألا تنتشر ذاكرتهم في نسغ الأرض والأطفال كما ينتشر
الثلج في القرى ؟ ...

الذين لم يعرفوا الحب أبداً ، الحب للوطن وللمرأة وللحياة ترى أفي أدمغتهم
« سائل ذاكرة » على الإطلاق . أم أن ابرة الطبيب ستخرج من أدمغتهم فارغة خاوية
بقدر ما كانت حياتهم خاوية من نبض العطاء والحب والانتظار والألم ؟ ...

النواصير المزاج ، المتعددو العطاءات ، إذا انكسر أنبوب سائلهم الدماغي وتساقطت
قطراته على الأرض ، ألن يكون له لون قوس قزح وتنبت الأزهار في موضعه بوحشية
كما في الأرض الاستوائية ؟ ...

الرافضون لالقاء القبض على حقيقتهم . الزئبق المزداج . ألن يتبخر سائلهم الدماغي
ويختفي لحظة يغادر مغارته السرية في رأس صاحبه ؟ ...

...

وهل يتم تكريس هذا الاختراع العلمي العظيم للدمار ، كأن يخطف الثوار والأبطال
مثلاً وتسرق ذاكرتهم ؟ وينتهي عصر الجواسيس وماتاهاري ومؤسسات الـ « C.I.A. »
بابرة نخيلة دقيقة سريعة كالأفعى ، حيادية كالصمت ، شرهة الامتصاص كالعلق ؟
ويتم فك عقد الألسنة بأسرع مما تستغرقه حالياً عمليات التعذيب ؟ ... وهل نسمع
بجائزة « زرع الدماغ » كما « جائزة نوبل » للتكفير عن هذا الاختراع الجهنمي ؟ ...
وهل نسمع بأن رجلاً تقدم بشكوى لأنه تعرض لسرقة ذاكرته أي لسرقته هو كإنسان ؟ .

والزوج الذي يشك بزوجه (أو العكس) هل يقدر على استصدار حكم يقضي
بنقل ذاكرة زوجته إليه ليعرف كل ما كان وما قد يكون ؟ ...

وهل يفرض البعض في وصاياهم على الورثة نقل دماغهم إليهم مع المال ، وبهذا
ينتفي حلمنا بجيل جديد يستعمل أدوات السابقين وامكانياتهم لخلق عالم جديد ؟ ...

وإذا ، إذا جاء مجنون تاريخي ما مثل هتلر ، احترف مثلاً سرقة أدمغة شعب ما
كشعبنا ، ونقلها إلى تربة كوكب آخر بعيد ليتخلص من تاريخنا الذي يحركنا ،
ألن تنبت أحزاننا فوق ذلك الكوكب أشجاراً من الزيتون المضيء ؟ ألن تلف الكوكب
أحقادنا مثل عاصفة من نار ، ويهطل فيه كبت تاريخنا مطراً من دم وصواعق ؟ ...

...

والحب ...

أليس الحب محاولة للتواصل بين ذاكرتين ومزج عميرين ؟ أليس محاولة لإيجاد لغة مشتركة بين ماضيين شبه ممزقين ، نصف منسيين ؟ ...

هل تستعويض العصور المقبلة عن الحب بإبرة تمتص ذاكرة كل من (العاشقين) . تمزجها ثم تعيد نصفاً متمازجاً إلى كل من دماغ (الحبيبين) ، ويتم الأمر في ربع ساعة على يدي طبيب مدرب يرتدي الروب الأبيض وتفوح منه رائحة المبيدات للجراثيم ...

ولكن ، ماذا يحدث للانتظار ؟ ... والذي يحجب لا يحجب ؟ ماذا يحدث لساعات الحوار الحميم بين الغرباء . ساعات الحمس واللاهمس وعبارات الشهية إلى مزج الذاكرة ؟ ماذا يحدث للمرأة المرتدية السواد . الحاملة لذاكرتها السوداء مثل المزيج الذي يغلي في قدر الساحرات . وللرجل الذي نسي وجهه الحقيقي أو تناساه ؟ ... ماذا يتبقى لهما حين ينطفئ الضوء الشموع ، والهمسات المسروقة تحت أول زخة مطر خريفية ؟ ...

وهل ينتهي دور الكاهن . ويتم الزواج على يدي طبيب « مزج الذاكرة » ، ويموت الغموض المحبب تحت وخزة الابرة الحاذقة في المكان المعين من الدماغ حيث الذاكرة ؟ ..

يقول الشاعر أراغون لحبيته إلزا : « عيناك عميقتان حتى انني أفقد فيهما ذاكرتي » ...

يا لرعب العصر القادم ، الذي سيستبدل عيون إلزا بإبرة فولاذية معقمة ! ...
أم ان « تأميم الذاكرة » على هذا الكوكب هو الحل ؟

عالم بلا قلب

أمام المرأة تخلع ثيابها . عملية تمارسها أية امرأة آلاف المرات . هي أيضاً ، طيلة أعوامها الستة والعشرين مارستها غالباً بآلية رتيبة .

ولكن الأمر مختلف هذه المرة . تخلع ثيابها وعيناها تومضان بشرر شيطاني داعم ، بلعنة تصميم مقدس ...

بمخاض أفعى تخلع جلدها لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها .

إنها لا تخلع ثيابها بالضبط ، بل إنها تخلع أعضاء جسدها عضواً بعد الآخر إلى الأبد في وداع حاسم مرير ... إنها تخلع عنها شرقة الحياة ولعنة القلب لتطير منها فراشة هاربة من الألم .

عارية . العروس عارية . العريس سكين . السكين تقطع شرايين الرسغ بهدوء . الدم الذي ظل يغلي داخل رأسها وجسدها طيلة أشهر يتفجر إلى الخارج ... الغرفة باردة وموحشة ، وتقع في فندق بارد وموحش ، يقع في مدينة باردة وموحشة ، في عالم بارد مظلم وموحش ... والرجل الذي كان مدينتها وشمسها ومنارتها قد مضى ... ليس هنالك ما تأسف لأجله .. تشعل لفافة .. تملأ (البانيو) بالماء الساخن ، وترتمي فيه وتلدخن ...

ثم ، لا شيء ... الموت المحتوم ودفعة واحدة . وخبر آخر في الصحف قرأته وسوأي عن امرأة انتحرت لأنها أحبت ... لأن القلب الإنساني الذي أسماه شكسبير « جوليت » ، (الصحف ذكرت اسم كارولين) ما يزال ينبض بالطريقة نفسها منذ قرون ، وحتى في عصر الإنسان الآلي ، وسفن الفضاء والقنبلة الهيدروجينية . الخبر يذكر التفاصيل ... ما الفرق ... اسمها لا يهم . الحكاية متشابهة ، تصادف أن

جوليت هذه المرة ألمانية ، وان حبيبها أردني ... والفندق في بيروت . الزمان : أول
البارحة .

...

أتابع قراءة جريدتي بينما تسقط الطائرة التي أنا من بين ركابها في بحر من الغيوم ...
أقرأ (سقوط طائرة ومصرع ركابها الثمانين وملاحيتها 1) ...
أضحك للخبر :

لا أتمسك بمقعدي (ما الفرق ؟ سيحدث ذلك في لحظة ما ، في مكان ما ، أن
أستحيل وردة من دم ممزقة على اسفلت شارع من شوارع بيروت كقطعة دهستها
العجلات ، أو أن أموت في فراش وثير وحولي الصعب والحلان كما ماتت الملكة
فيكتوريا ، ما الفرق ؟) .

أتابع قراءة جريدتي « ٣ كانون الأول ١٩٦٧ ، من لا يذكر هذا التاريخ ؟ ... »
أنا لا أذكر هذا التاريخ ، ولا يهمني أن أذكر شيئاً . (تواريخ فكساتنا ونكباتنا
صارت أكثر من تواريخ أعيادنا...فلتكن ذاكرتي أداة للنسيان) .. ٣ كانون الأول هو
التاريخ الخطير لحدث ما في نظر الصحافة ... أي منذ عام ... اذن ، أيام ونحتفل
بذكرى أمر خطير ...

ما الحكاية ؟ لذا أتابع القراءة « انه تاريخ أول عملية زرع قلب في العالم ا . يومها
زرع الدكتور برنارد في صدر مريضه بلايبرغ قلباً (جديداً) ، بالاحرى عضلة ضئخ
جديدة ... يومها أعلن : متوسط عمر الانسان الذي ينتغيه طب زرع القلوب هو ١٥٠
عاماً كمرحلة أولى . بلايبرغ يريدون له أن يعيش ١٥٠ عاماً ... »

من المفروض أن نقبل على قراءة الموضوع باهتمام ، واعجاب بعقريه الطبيب ونصره
الانساني (كما هو من المفروض أن يشعر أي قارئ سيعيش ١٥٠ سنة بفضل برنارد ...
تصفيق .)

لو ...

لو لم تقع عيني على الخبر المجاور ... والمجاور ... وعلى الجانب الثاني من الصفحة ...
وفي جريدة جاري ...

...

أتابع قراءة كل ما يحيط بهذا الخبر النصر من أخبار هزائم الإنسانية على أكثر من صعيد ... فيبدو لي بعدها انتصار الدكتور برنارد مثل محاولة ناجحة لتضميد اصبع مصلوب ! تضميد اصبع انسان نسف بيته في القدس بعد أن كان قد قتل في فيتنام ، بعد أن كان قد مزق قلبه غدرأ وأسفي غيفارا في مكان ما من العالم ، بعد أن كان قد أعدم رمياً برصاصة تحترق قلبه في الجزائر ، وكان قد احترق قلبه في ثانية كالجمرة في هروشيما أيام الحرب العالمية الثانية ، وقبلها كان قد أعدم خطأ في الحرب العالمية الأولى ، وتجمد قلبه على ثلوج روسيا الشاسعة وكان يومها يرتدي أوسمة نابليون ...

وأيضاً قبل أن يضمده له الدكتور برنارد جرح أصبعه (مشكوراً) ، كانت قد داست قلبه خلال عصور مركبات هولوكو وجزومات القياصرة ، وصخور اهرامات فرعون ... وما تزال ... وما تزال ... بطريقة أو أخرى ما تزال .

التهته بانتصار برنارد العلمي أحسستها في وسط الأخبار الباقية مثل نبتة في مستنقع مسموم ...

فإلى جانب عناوينه وصوره ، أطلت عناوين مقال عن « وسائل التعذيب التي تتبعها إسرائيل في فلسطين المحتلة » ... (وهجمت إلى عيني آلاف الصور ... بيوت تنسف ... رجال يُرمى بهم إلى الليل والعاصفة والمجهول في غيم ما) ...

أطلت عناوين مقال عن الحرب الفيتنامية (وهجمت إلى رأسي صور آلاف من البعث المشلوعة في العراء على طول أعوام ، بدمها المخثر على جراحها المفتوحة تحت القمر البارد المدهول) ...

* * *

... وسقطت في بئر بلا قرار . بئر اسمه تاريخ الإنسان . أسقط . تنهمر فوقه ملايين الأجساد الممزقة ، تضرب وجهي آلاف الاطراف المقطوعة ، التي ما زالت تقبض على بنادقها ، وسيوفها ، وهراواتها ، ونبالها ، ورماحها ، وأسلحتها الحجرية .

(هجمت إلى رأسي صورة « نوبل » العالم الذي اخترع الديناميت ، ثم كرس . ما جمعه ليكفر عن اختراعه الفتاك : جائزة نوبل للسلام ، أي جائزة لمن يسكب برميلاً من الماء على برميل البارود الذي اخترعه) ..

تابعت قراءة الصحيفة .. جرائم . افلاس . فشل . بؤس . مجاعات ، بؤس .
بؤس . بؤس .

لو صدرت صحيفة منذ ٣٠٠٠٠ سنة في الغاب ، هل كان يمكن لها أن ترسم
واقعا إنسانياً أشد وحشية ؟

كتابات الإنسان على جدران مغاوره الحجرية ، على أوراق البردي ، على هياكل
أورشليم وبابل ، هل روت قط مآسي جماعية مروعة كهذه ، وكالقتل الفريد للإنسان
الذي يمتاز به عصرنا ... حيث يتم اغتيال إنسانية الفرد ، فيموت الإنسان دون أن يكف
قلبه عن النبض . بل انه يموت مرات قبل أن يكف قلبه عن النبض بأعوام طويلة
طويلة ... يعيش خلالها — دون أن يحيا — عبداً لمؤسسات تحتكر إنسانيته ، ويصبح
جسده تابوتاً متحركاً ، يتزلق كالشبح في الشوارع الشاحبة لمدن أصابتها لعنة العصر ...

* * *

أي هول ، يا أخني الإنسان ، أن تقرأ جريدة !! ...

أعني ، أي هول ، أن تقرأها ذات يوم بعين جديدة ، هي عينك الثالثة المختفية
داخل جمجمتك — أظن أن البعض أسماها البصيرة — .

... وإنسان العصر أوديب فريد المأساة ، فهو ينظر ولا يرى ، ويرى ولا يبصر ،
يا للهول ، لقد سملوا عينه الثالثة (البصيرة) ! .. ولذا صار قادراً على أن يقرأ جريدته
كل صباح دون أن تصعبه مرة واحدة ويرمي به توترها قتيلاً ، أليس فيها من الشحنات
والمآسي أكثر مما في كرسي الاعلام الكهربائي من شحنات ؟ ..

البصيرة ؟ أسموها تارة بالوجدان وتارة أخرى بالقلب ...

البصيرة . أثبت التاريخ أن سملها ممكن ، لكن إبادتها مستحيلة .

* * *

« دعوا والذي يموت بسلام » ، هكذا صرخت ابنة صاحب القلب المزروع
« بلايرغ » ، في أنامل الدكتور برنارد التي صممت على أن تصيبه بلعنة البقاء في هذا
العالم ١٥٠ سنة !! ...

أستعير كلماتها ... « برنارد ، دع الإنسان يموت بسلام » .. أضيف إليها :

ليس المهم أن تزرع قلباً في الإنسان .. المهم أن تزرع الإنسان في هذا العالم .

الحاوي برنارد .

ما جدوى أن تزرع للإنسان عضلة القلب ، ما دام يعيش في عالم هرم بلا قلب ، في عصر عجوز البؤس بلا قلب ! هذه المرأة الألمانية المتتحجرة ، لبتك تستطيع أن تزرع قلبها في ضمير امتها .. قلبها الذي أحب ذلك الاردني الذي تشارك بلادها في دفع ثمن رصاصة لقلبه !

اطالة الحياة ، ليست بالضرورة في اطالة العمر ... انما هي في (تقصير) أمد تعاسة الإنسان ، أو في محو أسبابها . الا ترى معي ان الذين ينقلد العلم حياتهم (بالمفرق) ، يتم قتلهم (بالجملة) في الحروب المعاصرة ؟

مأساة الإنسان لا تحلها عدة سنوات تضاف إلى تاريخ مولده ، وانما تحلها اضافة البعد الثالث الإنساني إلى سنوات حياته أياً كان عددها ...

برنارد ، اطفئ شمعاً العيد الأول لاختراعك ، ونكسها راية هزيمة .

لماذا ؟

تعال معي إلى مقبرة ما .. مقبرة تقع في المستقبل ، أية مقبرة في أية مدينة بعد قرن . سنقرأ على رخامها : هنا يرقد فلان عن عمر ناهز المئة والثلاثين . قتل في الحرب العالمية الثالثة ...

برنارد ، لو أن شواهد القبور تحمل الأعوام الحقيقية التي عاشها صاحبها فعلاً ، أو بالمعنى الإنساني للكلمة ، لما حملت شواهد قبورهم (أولئك الذين قد يعيشون بفضلك عشرات من الأعوام) أكثر من أشهر عديدة من (الحياة) الحقيقية لا (العيش) الحسابي ... سنقرأ : هنا يرقد فلان عن عمر يناهز المئة والعشرين بفضل برنارد لكنه مات مقتولاً في شرخ شبابه هذا ، اذ اغتاله النظام الاستهلاكي لبلاده ودمر روحه عدة مرات ريثما أجهز عليه فيما بعد إنسان آلي لخلل مفاجيء في بطاريته ! وقد عاش من ١٢٠ سنة تلك ثلاث سنوات فقط إذ أحب خلالها يقيناً ما ، فحقق بذلك قلبه غير المزروع ، (البصيرة ، الوجدان) .

...

العلم سلاح ، أي أداة . تأليه العلم مأساة . استعماله واستخدامه هو الأهم . ان يظل عبداً ووسيلة ، بندقية تطلقها الإنسانية في حربيها ضد الغاب ، بدلا من أن تحولها إلى صدرها وتنتحر بها ...

العلم صيدلية ، تستطيع عقاقيرها أن تشفي وأن تقتل . قبل أن يصرف لنا برنارد (وصفة) لمداداة عمر الإنسان كياً ، أي عددياً ، تقف أجيالنا الإنسانية الممزقة أمام صيدليته منذ عصور باحثة عن الدواء الذي يجعلها (تحيا) انسانياً ، سنوات (عيشها) الكمية تلك ...

...

برنارد ،

اذهب عنا ، لسنا بحاجة إليك في عصرنا هذا ، عصرنا المتخم بالرقى العلمي ، المصاب بفقر الدم وهزال الانساني .

لا نريد (قلبك) المزروع ، نريد من يزرع الحياة في قلوبنا — مهما قصر أمد خفقانها — ، نريد من يزرع فيها ما أسماه (برنارد) جاء قبلك بثلاثة آلاف عام وكان اسمه أفلاطون : « تلك الغبطة العزيزة على القلب » ، وما أسماه براوننغ : « إيجاد معنى للحياة ، وغاية ، هو طعام قلبي وشرابه » وما أسماه ليوناردو دافنتشي « أنبل غبطة تضيء القلب ، غبطة الفهم » ... شكسبير قال : « أن تكون أو لا تكون ، تلك هي المعضلة » ... وهذه لا تتوافر للإنسان إلا في عالم انقرضت منه شريعة الغاب ورثما يتم ذلك ، فإن إطالة أجل حيواناتها أو تقصيره ، لا علاقة له بتعميق البعد الثالث الأهم للحياة ، البعد الإنساني ... وأنت الذي تعرف كل شيء عن عضلات القلب وصماماته وأعصابه وشرائنه ، لا تعرف عنه سوى (القلب العضلة المضخة) ... ليس بالمضخة وحدها يحيا الانسان .. وآبار أعماقه بحاجة إلى من ينضح منها عنمتها ، ويخرج من دهاليزها الجحاحم والمآسي المتراكمة طيلة عصور ..

...

برتراند راسل ، فيلسوف السلام شبه الاعمي ، المرتجف اليدين يعرف كيف يزرع لعالمنا الوحش قلباً إنساناً أكثر مما تشفي أناملك الرشيقة ، بينما تزرع مضخة جديدة في قلب إنسان يمزقه أنه محكوم بأن يكون إنساناً محكوماً بالاعدام مع تكرار التنفيذ .

فليصفق لك عالم عصر الذرة ، ولتهتف بحياتك مظاهره تتحالف فيها حنجرة الرجل الآلي بقلبه البطارية ، مع حنجرة بقايا الإنسان المنقرض ، رجال ، أجسادهم تواييت متنقلة تحركها عضلة ضامرة اسمها القلب أيام كان الحيوان البشري إنساناً .

ولست وحدي التي أنظر اليك مشفقة على عصري منك .. « ميتيا » في الاخوة كرامازوف يصرخ بلسان الملايين عبر ريشة ديستوفسكي : أنا أحد أولئك الذين لا يريدون ملايين من النقود أو الأعوام ، بل انما يرغبون في إيجاد أجوبة لأسئلتهم ، ومنارات لوجودهم .

* * *

برنارد ، هل قرأت (جحيم) دانتى ؟ أليست (جهنم) التي يصفها أقل فظاعة ووحشية مما يلقاه الإنسان في معتقلات التعذيب وساحات الحروب والسجون وأقبيه المستشفيات ، وتحالف العلم والقدر ضده في عصرنا العجيب ، الذي استطاع انسانيته أن يتحرر بسفينة فضاء علمائه من الجاذبية الأرضية ، ولم ينجح في تحرير انسانيته من منطق الطين !

برنارد ، احمل ملاقطك وقفازاتك ومشركك واركب سفينة د . ش . ويلز ، سفينة الزمن ، وارحل بها عنا إلى العصور البعيدة السعيدة الآتية يوم ينجح الإنسان في زرع قاب لهذا العالم .

ولكن ، هل يمكن لمثل هذا العصر أن يأتي ؟ ..

برنارد . لا . قبل أن تلملم أدواتك الطبية وترحل ، اسمع ، لماذا لا تفكر باختراع جراحة لاستئصال (القلب الوجدان) بدلاً من زراعة القلب المضخة ؟ ...

موت رقم ١

اليوم اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

أحزنني ذلك كثيراً ... شعرت بأنني أشترى كفنًا ... كفنًا لحماس الأيام القديمة ، أيام كان كل ما أقوم به مليئًا بالرغبة في ادائه والشهية للقيام به ، وبالتالي كنت معصومة عن النسيان لأنني كنت أنتظر بلهفة حلول مواعيدي كلها ...

نشترى مفكرة دون أن نلاحظ أننا نشترى جزءاً من قبرنا ... فكل لحظة موت للحماس هي موت جزء منا ، هي موت بعضنا ...

انك لا تستطيع أبداً أن تنسى موعداً أو عملاً ترغب رغبة حقيقية وكاملة في تحقيقه ... انك تنسى ما لا تحب بكل جوارحك ، وما لا تؤديه الا بفعل ضغوط شبه خارجية ... وهكذا تتحول الذاكرة الى أداة للنسيان كي تحمينا من أنفسنا !

ويوم تشترى مفكرة للمرة الاولى تكون قد دفعت القسط الأول لكفنك . فنحن لا نموت حقاً مرة واحدة ، وانما نموت بالتقسيم ، نموت موتاً بطيئاً لا نلاحظه وقلما نتوقف عنده ، نموت باستمرار ... وقد نسمي موتنا هذا نجاحاً ، وازدحام مفكرتنا بالمواعيد مع الأسماء اللامعة و (الهامة) انتصاراً ! ..

انني أشترى مفكرة هذا العام بكل خجل وأسى ... فقد صرت نهائياً في حاجة الى تسجيل ارتباطاتي كلها ... ألا يعني هذا أنني غير مرتبطة « حقاً » بأي شيء ، وان حقيقي تطير بعيداً بعيداً عن التزاماتي ، مثل منطاد تاه في الفضاء بعد أن أفلتته من زمان يد اليقين والحب ، وعبثاً تستعيده ١٩ .

أشتاق ، أشتاق لأيام تكون مواعيدي فيها مثل نجوم في ليل عمري ، أرصدها ، وأرقبها ، وأنتظرها ، وأحفظ جيداً أوقاتها ... ولا أؤدي الا ما أتوق اليه بكل جوارحي وطاقاتي وذاكرتي . أشتي أسبوعاً تكون مواعيدي خلاله وشماً لا يمحي في ذاكرتي ،

وأن يعود لكل يوم لونه المميز نوطعه وانتظاره الخاص . اشتهي عودة الحماس إلى قلبي
(ولو أسبوعاً واحداً أموت بعده ، وأشتهي ذلك مثل شهية حزمة من الديناميت إلى
انفجار كامل !) .

والأصدقاء الاحياء أو الغرباء الذين يهدوننا مفكرة العام الجديد ، ألا يشعرون انهم
يهدوننا بعضاً من قيودنا الذاتية ، بعضاً من وسائل تدجيننا ، مطرقة لتطويعنا فوق
سندان « الزمن » وفار الالتزامات الاجتماعية واليومية ١٩ .

صباحاً اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

ومساءً أحرقت مفكرتي ...

... فاغفروا لي أيها الرفاق إن نسيت مواعيدي معكم ! ..

لاني في حاجة إلى موعد مع ذاتي ...

ولن أخلف مواعيدي مع ذاتي بأي ثمن . أنا التي اخترت منذ البداية أن أخسر
العالم كله على أمل أن أربح نفسي !

تأملات شبه نرجسية حول كتبي

لحظة تنتهي من كتابة أحد مؤلفاتك ، تعرف جيداً أنك قد مت.. ولكن أحداً لا يعرف أنك ميت . كل ما يلحظونه هو سلوكك غير المسؤول الذي يتلو حسك العظيم بالمسؤولية أثناء الكتابة .

— همنغواي —

الكتابة مهنة التوحد والعزلة . الأسرة ، والأصدقاء ، والمجتمع هم الأعداء الطبيعيون للكاتب . إنه بحاجة إلى أن يكون وحيداً ، لا يقطع أحد عليه عمله.. وهو يصير متوحشاً بعض الشيء إذا أرغم على كبح جماح كتابته .

— لورانس كلارك باول —

أخذت قراءة ما كتبت ، وإذا أعجبك مقطع ما بصورة خاصة إعجاباً شديداً ، فاشطبه !

— صموئيل جونسون —

« حب » .. الكلمة الملعونة !!

الحب ليس نقيضاً للثورة .

الحب ليس نقيضاً للحس بالمسؤولية ، وليس نقيضاً للجدية في مواجهة قضايا الحياة .

وبعد هزيمة الخامس من حزيران نشأ تيار نقدي يصنف الادباء والشعراء والكتاب الى نوعين : كاتب حب وامرأة ، وكاتب وطني . وحين تجرأ أديب مبدع ، سبق له أن كتب عن الحب ، على أن يخط سطوراً يحملها حبه للأرض وللوطن وحسه المرير بالهزيمة ، قامت قائمة النقاد ، لا لأن حروفه جيدة أو رديئة ، وانما لمجرد أنه تجرأ وكتب عن الأرض بعد أن دنس قلمه بالكتابة عن الحب ! كأن ثوار العالم كلهم الذين نسمع بهم نذروا العفة ! كأن ملايين الرجال الذين قتلوا في الحروب هم مصابون « بالعجز » أو هم من صنف لا يقرب النساء ! والغريب أن العرب ، في غابر عصورهم ، لم يكونوا على هذا القدر من ضيق الافق النقدي و « العجز » الفكري ، وقد استطاع أجدادنا أن يفهموا جيداً نموذج عنزة المقاتل والعاشق ، فلم يوجهوا إليه تهمة الحياة العظمى لأنه تحدث عن الحب في زمن الحرب ، ولم يرمجوه لأنه حمل في عينيه صورة حبيبته إلى ساحات الوغى ... وجه حبيبته كان مقبض سيفه .

الدعوة إلى الحب جزء من الدعوة إلى تحرير النفس العربية مما علق بها عن مفاهيم مغلوطة تشوه انسانياتها وتعوق تفجير طاقاتها . وعلينا أن نتذكر من جديد أن جميع المقاتلين العظماء كانوا عشاقاً عظماء ، وان نابليون كان يكتب رسائل عشقه الخالدة بالبارود بين معركة وأخرى ، وانه من الضروري تحرير مفهومنا « للشاعر الوطني » من فكرة سطحية هي « الرهينة » العاطفية والجنسية . فالشاعر العظيم هو إنسان عظيم ، والإنسان العظيم هو القادر على ممارسة نواحي انسانيته كلها والتعبير عنها دونما خجل .

ولكننا نحب أن نضع الناس والكتاب في أدراج . نصنفهم ونستريح . هذا أديب مقاومة ، وهذا أديب المرأة ... ان ملاحقة اتساع النفس الإنسانية وشمولها ، وواقعها البشري الجميل ، هو فوق طاقتنا على الاحتمال . وأعتقد بأن تاريخ الادب العربي سيذكر بكثير من الدهشة والسخرية ان نقادنا أرادوا توزيع المهام على الشعراء مثلاً والصاق بطاقات تحديد لمواهبهم : هذا شاعر حرب . هذا شاعر هزيمة . هذا شاعر حب . هذا شاعر نصر . هذا شاعر حزيناني . وهذا شاعر تشريني . إنها لمهزلة ، ومتى نكف عن الوقوع في الفخ نفسه ؟؟ ...

• • •

« حب » ... كلمة محيدة ..

وقررت أن أسمى كتابي الجديد « حب » ... وحين أعد لي ناشري ، غلافاً للكتاب رسمه فنان مصري كبير قلت له : « انه جميل ، لكنه لا يجسد فكرة الكتاب عن الحب . فصورة كيوييد التي رسمها فوق حرف الباء (في كلمة حب) تعبر عن مفهوم معين للحب يختلف عن مفهومي له . الحب ليس إصابة عشواء من الخارج كالشرح مثلاً ، وإنما هو سهم داخلي يغمده الإنسان في نفسه ويحمل مسؤولية جرحه .. ثم ان الفنان رسم كيوييد — كالعادة — طفلاً متورداً الصحة ، وإذا وجد « السيد كيوييد » فإني أتخيله رجلاً عميقاً عنكاً مثل سنديانة الأساطير ، شفافاً ونحيلاً ، وربما كان زنجي الوجه .

ثم إنني لا أرضى برسم القلوب رمزاً للحب ، لأنني أؤمن بأن الحب يقطن الإنسان بأكمله ، وإذا كان لا بد من رمز للحب ، فليكن الدماغ قبل القلب ، توكيداً على أن الحب فعل مسؤولية ، وابداع عن سابق تصميم وتصور .

ونخفت أن أصدم القارئ برسم أدمغة على غلاف الكتاب ، بدلاً من قلوب ! وتضايق ناشري مما يسميه عنادي وشغبي ، وقررنا أخيراً أن أتولى أنا إعداد الغلاف . وقررت أنا : الأمر في غاية البساطة . سيكون الغلاف كلمة « حب » بالعربية ، محاطة بكلمة « حب » ببقية لغات العالم التي أستطيع الحصول عليها ... سأذهب إلى الفنادق

• كان ذلك عام ١٩٧٣ يوم صدرت الطبعة الأولى من كتابي « حب » ، وقبل أن أستقل في « منشورات غادة السمان » .

والبارات وأسأل الغرباء عن كلمة « حب » ، بلغتهم ، وأطلب منهم أن يسطروها لي على ورقة ، وأجمعها ثم أكتبها على غلاف كتابي .

ولم أكن أدري أن كلمة « حب » ، في عالمنا المعاصر الشقي ، مثل حزمة ديناميت : و قنبلة يدوية نزع فتيلها فما تكاد تخرج بها حتى يقلد بها الناس بعيداً برعب مسعور !

ان كلمة « حب » في عصرنا الرديء مثل مرآة سحابة لا تظهر فيها الأقنعة التي تكسو الوجوه ولا يرتسم في صفحتها الا الوجه عارياً من كل ادعاءاته . ولأن أحداً في عصرنا الرديء لا يريد أن يرى وجهه الحقيقي ، تجدهم يحاولون كسر المرآة .

...

في البداية ، ذهبت وبعض الأصدقاء إلى أحد الملاهي الليلية ، وحين أنهت فتاة « ستربتيز » سويدية وصلتها ، اقتربت منها وسألتها بالانكليزية عن كلمة « حب » في لغتها ، وساعدني صديقها اللباني على تفسير مطلبي .

حب ؟! وانفجرت تضحك ساخرة ، وتأملني بدهشة كأي طلعت عليها من بين دفتي كتاب من كتب العصور الوسطى ! حب ؟ وتابعت ضحكها بصوت مخمور ، وحين ألححت عليها بطلبي ، وقفت فوق طاولة الملهى وبدأت تتعري وتصرخ في وجهي : « هذا هو الحب يا سيدتي الفاضلة ! » .

...

وفي أحد « البارات » التي تتزف أضواؤها الحمر القائمة دماء الليل الحزين المسموم ، تقلعت من صاحبة البار الستينية ، الايطالية الملامح ، وشرحت لها طلبي البسيط البريء . فجرتني إلى غرفة الإدارة الصغيرة في « البار » وأضاءت نوراً قوياً فاجراً سلطته على وجهها المتعب الذي بدا ، في الاضاءة الساطعة ، مهتماً وبائساً مثل مدينة نخرتها الحرب ، وقالت بصوت حزين : « هذا ما فعله بي الحب ! » .

قلت لها : « كل ما أريده هو أن تكتبي لي بالايطالية كلمة حب » . وانفجرت تبكي ... وتعب الخمرة . وبدا أن السؤال فجر أوجاعها . وانها تريد أن تروي لي حكاية طويلة ما لبثت أن اختصرتها عندما خلعت عن رأسها « باروكة » شعر اصطناعي ،

وعن عينيها كمية من الرموش كالعناكب ، وكومتها أمامي على الطاولة مع خاتمها الماسي الكبير . وصرخت لي : « هذا هو الحب ! » .

* * *

في « بار » تعمل فيه فتيات باكستانيات سألنا إحداهن عن الكلمة ، فردت بلا مبالاة ميكانيكية - كدمية - : « كم تدفعون ؟ » .

* * *

قررت أن كلمة « حب » تفتح جراح « المعذنين في الليل » ، وانه من الأفضل أن أتابع المهمة في النهار مع أشخاص يحتفظون بكامل وعيهم (أو يتوهمون ذلك !) . ذهبت إلى سفارة بلد آسيوي بعيد ، وطلبت من أحد الموظفين أن يكتب لي الكلمة : فطلب إذنًا من أحد رؤسائه . وطلب الرئيس إذنًا من رئيسه . وحدث ارتباك وهرج ومرج ، كأنني جئت أنسف السفارة كلها !

ولم يكتبوا لي الكلمة إلا بعد أن أكدت لهم حسن نيتي ووقعت لهم تعهداً بأن هذه « العبارة » لن تستخدم لأغراض غير سلمية (!) أو سياسية ، وبعد أن قبل الموظف كتابتها لي على مسؤوليته الشخصية !

* * *

وسألت رجل أعمال هولندي عن كلمة « حب » بلغته فقال : « تعالي أريك صورة حبي » ، وفتح خزانته الحديدية مشيراً إلى كدسة دولارات !

* * *

ونزلت إلى مخزن جاراننا الأرمني أسأله عن الكلمة . هو رجل طيب وعجوز وأعور ويصق باستمرار قبل أن يقول أي شيء هام . وحين سأله عن كلمة « حب » بصق مرتين وتظاهر بأنه لا يسمعي ، وبدت في عينه الوحيدة خيوط أسف من أجل الجارة الوقور . وسألني فوراً عن صحة زوجي ... ورفض الرد على أي سؤال !

* * *

وسألت إحدى السكرتيرات الأجنبية عن الكلمة ، فقالت لي وهي تلملم أوراقها :

« لا تذكرى هذه الكلمة أمامى ! لقد طردت من عملى للتو بسبب هذه الكلمة المشؤومة ..
حب ؟ » وبدأت تبكى !

• • •

بالرغم من الحثيات السابقة كلها ، من نقدية وغير نقدية وحرية ، قررت أن
أسمي كتابى « حب » ...
لا بالرغم منها ، بل بسببها !

قصة القصة التي أحاول كتابتها !

أول البارحة ، استيقظت مع الفجر وفي رأسي ذلك الانفجار السري الذي أحوله غالباً إلى سطور مكتوبة هي قصصي ... استيقظت وأصابني مكهربة كأنما وصلت بأسلاك لا مريئة إلى مولد أزلي أسماء البعض « الالهام » . وله أسماء أخرى كثيرة منها « الجنون » ... كان الزلزال يحتاج دهاليز روحي ، وأحسست أعماقي مضطربة ونارية مثل بركان على وشك الانفجار ...

وهربت إلى غرفتي الصغيرة الخاصة بمحالات « الوضع الأدبي » . وعلى بابها أضأت النور الأحمر - كما على باب الاستديوهات - وهي إشارة تعرف منها أسرتي أن حريقاً شب في أعماقي . وأني لا أريد أن يتحدثني أحد حتى ولو شب في البيت حريق ! ..

ولم أكد ألملم أوراقى وأفكاري حتى بدأ صوت حفارة بناء آلية ... صوت شرس قاس يفتت أفكارك وأعصابك كما يفتت الصخور والأحجار ... وحاولت أن أجمع كل مواهيبي في « اليوغا » لأركز على عملي . كان ذلك مستحيلاً . وبعد دقائق شعرت بأن الحفارة تعمل داخل رأسي مثل ماكينة لطبيب أسنان جهنمي يحفر جمجمتي ! . كانوا يحفرون أساساً لبناء ضخيم سيتم تشييده قرب قرميد بيتنا العتيق الوديع ... وانتقلت إلى غرفة الضيوف في بيتنا . وهي تقع في الطرف الثاني . وفوجئت بورشة من العمال بدأت العمل بهدم مدرسة « الفرير » القديمة تمهيداً لبناء جهنمي عصري آخر !

وأقلعت عن الكتابة وحزنت كريان جاثع للرحيل ومجد محرك طائرته معطلاً ... كان يني محاصراً بالضجيج ويجنون الآلات الحديثة .

وحاولت الاستغراق في « روتين » الحياة اليومية . ولكن ذلك كان شبه مستحيل . كانت جميع أنواع الحفارات الأخرى تحاصرني : حفارة الواجبات الاجتماعية ، حفارة العلاقات القديمة نصف الميته . وحفارة الآخرين اللامبالين بأعماقك ... حفارة الزحام

والفضوليين والمفترضين أن من واجبي أن أراهم !

كنت مكهربة ، وأصابني بدأ يسري فيها ألم غامض . وفي متشنج كما لو أن كمامة تقيده ... وفي حلقي صرخة مكتومة . واستمرت الحفارة طوال النهار . وعلمت أنها ستستمر طوال الشهرين القادمين على الأقل .

وفي اليوم التالي (البارحة) قررت أن أستأجر شقة مفروشة أهرب اليها للكتابة ... ووجدتها في الطابق السابع من بناء ساحر يطل على البحر . وعبر نافذة الشرفة كانت الأمواج تيجيء إلي وخط الأفق يبدو طليقاً ولا متناهيأ ... ودفعت ايجار الشقة الباهظ لشهر سلفاً ، وقلت في نفسي : ثمن القصة التي سأكتبها معادل لاييجار الشقة ، المهم هو أن أكتبها ، وليظل الافلاس شعاري !

كانت هنالك مشكلة ، وهي أن السرير يحتل الغرفة ويسرق منظر البحر . فهي شقة أعدت لانسان يحب أن يمارس أي شيء إلا الكتابة !!

وبدأت المتاعب التي بدت لصاحب الشقة سلسلة من الرغبات الغريبة الغامضة : لا أريد سريرأ في الشقة ، أريد منضدة . صاحب الشقة يلفت نظري إلى التجهيزات المطبخية الممتازة فيها وأنا ألح على احضار «لمبادير» له ضوء ساطع يصلح للكتابة والقراءة اذ لاحظت أن اضاءة المكان « رومانتيكية » جداً !

وبعد الظهر حملت أمتعتي وجئت . كانت مؤلفة من منضدة « ولمبادير » و «بيك آب» وأسطوانات وحقيبة سفر . وحين وصلت سقطت حقيبة السفر من يدي وانفتحت وظهر للجميع أنها تحوي أوراقاً ودفاتر و « نوطات » . مجرد أوراق بلا ثياب .. واحتملت نظرات الشك والدهشة التي بدت في عيون الجميع : صاحب البناء . ووكيله وموظفيه . وكنت مرهقة ومنبوشة الشعر . وبدوت حتماً مثل هاربة من العدالة . لا يهم ... لا شيء يهم غير أن أحصل على بعض السكينة لأكتب ! .. ومساء أغلقت باب الشقة بعد أن أعددت كل شيء ليوم عمل مقبل : طاولة الكتابة في موضع السرير أمام الشرفة . و « للمبادير » و « البيك آب » والأسطوانات ... وواجهت بعض المتاعب العملية الصغيرة كايجاد « فيش حرامي » لادارة الأسطوانات واشعال نور الكتابة في آن واحد . واشتريت قهوة وسكرأ وتحفرت لليوم التالي ..

اليوم صباحاً نهضت باكراً وقد قررت الهرب من بيتي إلى الشقة الجديدة قبل أن تبدأ الحفارة بازعاجي . حملت بعض ما نسيته من أقلام وأوراق . وسقطت من يدي

المحبرة وتشاءمت (حين كتبت كتابي الأخير « رحيل المرافىء القديمة » استهلك نصف زجاجة حبر . احتفظت بنصفها الباقي تفاعلاً) واندلق الحبر الباقي لقصتي الجديدة على الأرض مثل دماء قتيل ، وتشاءمت ...

سرت بسيارتي المهمة بضع مئات من الأمتار . واكتشفت أن أحد اطاراتها قد « توفي بالسكتة » . هبطت وتركتها حيث هي وركبت أول « تاكسي » . مستميتة للوصول إلى الشقة والكتابة . قرب الشقة اصطدم « التاكسي » بآخر . حادث بسيط انكسر له زجاج الضوء الأمامي وبعض أجزاء الهيكل الحديدي . وهبط السائقان يتشاجران ، وذهب أحدهما للاتصال هاتفياً بالشرطة وبخبر بينما الثاني يشرح لي كيف أن السائق الآخر هو المسؤول . ولملت أشياءي وهربت قبل أن يعثقلني السائق الآخر كشاهدة ! تابعت الدرب مشياً إلى الشقة . دخلت ، وجدت عبارة « المصعد في التشحيم » على باب المصعد . صعدت الطبقات السبع وأنا ألث وأشم السجائر . وأغلقت الباب وأقلته مرتين . وقررت لو أن الأقفال تجدي لاشرية مجموعة منها أرصع بها الباب على طوله لأضمن عدم تسلل العالم الخارجي إلي . ولكن ! .

وضعت إحدى الأسطوانات وفتحت باب الشرفة وتركت النسيم الصباحي يدخل عبر مسامي كلها . وبالبحر العظيم الشاسع غسلت جفوني وقررت أن أبدأ الكتابة ... شعرت بالرغبة في فنجان قهوة ، وفوجئت بأن الغاز لا يعمل ، لكنني لم أطلب إصلاحه كي لا يضايقني أحد ... كنت في حاجة إلى أن أكون وحدي وحدي ...

ولم أكد أبدأ الكتابة حتى سمعت ضرباً عنيفاً مستمراً وأطلت من الشرفة ، ففوجئت بعشرات العمال وقد انتشروا حول البناء الأصفر شبه العتيق الملاصق لشقتي ، وفي أيديهم مطارق ضخمة وقد باشروا بهدم البناء الصغير المجاور .. تمهيداً لاعادة بنائه بشكل عمارة ضخمة ! .. دقائق وبدأت سيمفونية المطارق والبناء ... وعما قريب تصل الحفارة !

قولوا لي أين أهرب ؟ ١٢ . وأين جزيرة روبنسن كروزو لأذهب للإقامة معه ؟ أم أن الحفارة سبقتني إليه ؟ ١٢ .

وهل صار روبنسن كروزو نفسه متعهد أبنية حديثة ضخمة وصاحب حفارات ؟ ..

أين أين أين المقر لأمثالي ؟ أم أنه محكوم عليهم بالموت في عصرنا ، وعما قريب يدفنونا داخل اسمنت أساسات بناء جديد يشيد من أجل مزيد من الأبحاث لاخترع مزيد من القنابل المدمرة ؟ ..

وها أنا لا أستطيع كتابة شيء اليوم سوى : S.O.S. كررتها حتى امتلأت بها الصفحة . إنها شارة استغاثة السفن قبل أن تغرق . أين أين أين أهرب !؟ ..

ملاحظة : بعد أن كتبت السطور السابقة ذهبت وأحد الأصدقاء إلى برمانا بحثاً عن السكنية في غاباتنا . وجدت مقهى نائياً على قمة جبل وجلست أتأمل الصنوبر وهمس الريح بين أشجاره . ثم أخرجت قلمي وأوراق لي لأكتب حين فوجئت بصوت حفارة في قاع الوادي . وكان لصوتها شبه قهقهة ساخرة وحشية . الأمر لا يصدق ! لكن . ببساطة ، حدث لي . كأني مرصودة لتلاحقي أنواع الحفارات كلها .

باختصار : تم اجهاض القصة . !

• كانت تلك هي محاولتي الأولى لكتابة روايتي « بيروت ٧٥ » .

بحزن غابة محترق ، أهول ...

في مثل هذا اليوم منذ أربعة أسابيع بدأت كتابة روايتي « بيروت ١٩٧٥ » . في الحقيقة ، لم أكن أقصد كتابتها . كنت أنوي إعادة كتابة رواية عذبتني طيلة ثمانية أعوام وهي « السقوط إلى القمة » ، أشهر رواية عربية « غير منشورة » ! لكن الذي حدث هو أن شخصاً رقيقاً يحب المال والشهرة اسمه « فرح » تدخل بيني وبين أوراقي : وفرض علي أن أكتب حكايته مع بيروت .

هذا الشخص لم ألتق به قط في حياتي ! لقد نَبَتَ داخل دماغي وتوسل إليّ أن أروي حكايته . (هكذا يفعل أبطال قصصي دائماً . انهم يسكنونني كالأرواح ويرغمونني على نقل أصواتهم ، فتصير حنجرتي أداة لصرخاتهم) . وقررت : سأكتب حكاية فرح مع « بيروت ٧٥ » في قصة قصيرة ، ولن يستغرق الأمر أكثر من أيام ثم أعود إلى روايتي « السقوط إلى القمة » .

ولكن كاتب القصة أداة لأصوات كثيرة تسكنه . ولعل عقلي الباطن ، حين التقط عبارة « بيروت ٧٥ » ، تفجر كل جنونه ، كل حزنه ، كل ما رصده طيلة هذه الأعوام ! فهو لا يرى في بيروت « سويسرا الشرق » ، كما يقولون ، وإنما يرى فيها جزءاً من الأرض العربية ، وكل ما يدور في بيروت يعكس ما يدور في النفس العربية ، في كل قطر ، من أحلام ومآس وأوجاع اقتصادية وسياسية وقهر . كل ما في الأمر أن طبيعة بيروت تعري الناس بقسوة أشد وبسرعة أكبر ، فتدينهم ويدينونها ، وتدمر بعضهم وتحرق البعض الآخر ، ومن الناس من هو كطائر الفينيق يبعث دوماً من الرماد أشد قوة ونضارة ونقاء ...

ووجدت أمثال هؤلاء الناس يصرخون في أعماقي . في البداية كانوا يتوسلون إليّ أن أكتب قصتهم ، ولم تنقض أيام وإلا وصرت عبدة لهم لا أملك منهم فكاً . ولم أعد

أنتظر أن يتوسلوا إليّ ... صرت أستحضرهم وأنهض قبل الفجر لأكتب حكاياهم ولم أعد أعرف النوم الحقيقي (أشتاق إلى النوم . إلى السكينة . إلى السلام !) وهم لا يتركون لي لحظة سلام . ياسمينه ، وفرح ، وأبو الملا ، ونمر ، وطعان ، ونيشان ، وفاضل ، وغيرهم ... كلهم صرت مسكونة بتفاصيل حياتهم . بحكاياهم . بصرخاتهم . بآلامهم . بسقطاتهم . ليس صحيحاً أن الكاتب يخلق أبطال القصة . الصحيح هو أن أبطال قصته يستعبدونه . أنهم في البداية ينبتون في داخله : لكنهم ينفصلون عنه بسرعة و « يكونون » ، بل ويرتدّون عليه أحياناً ويرفضون أن يقولوا إلا ما يخرج من طبيعتهم كبشر مستقلين ، وحتى أنهم يرتدّون على الهيكل العام للقصة ويعدلونه بما يتفق وصفاتهم ككائنات حية حرة ! وبدأت حريتهم تأكل حريتي ... وبدأت أفقد صلتني بالعالم الخارجي ... ها هم يغفلون على أصابعي كل ساعات النهار ، يرقصون بين جلدي ولحمي ، ويستلقون داخل عظامي ، ويتسلقون أهدائي ، ويخرجون من وسادتي حين أحاول النوم ، ويرفضون قرب السرير بعيونهم المفعورة ، محدقين في وجهي في الظلام كي أنهض وأتابع كتابة حكاياهم . فهم يعيشون فقط من خلالي ، وهم مصرون على الحياة ولو قتلوني . وتحولت بين أيديهم إلى مجرد وسيط روحي كل مهمته هي نقل رسائلهم ورغباتهم ! ولأجل ياسمينه وفرح وأبو الملا ونمر وطعان وغيرهم من أبطال قصتي « بيروت ٧٥ » انفصلت تماماً عن دوائري الاجتماعية كلها ، ولم تعد أسرفي هي أسرفي ، فأنا أعيش مع أولئك الأشخاص الهميين الذين أكتب عنهم ... نتشاجر أحياناً ونتصافى في ساعات طويلة من الكتابة التي لا يقطعها شيء .

لقد تسللوا حتى إلى أحلامي ، وقد حملت بالصياد أبو مصطفى ، ذي اليد نصف المقطوعة . ونهضت من نومي مذعورة ، وهرعت إلى مكتبي ، وحملت أوراق المخطوطة المبتين ، وبدأت أرميها ورقة ورقة إلى سقف الغرفة في قلب الليل والظلام وأنا أصرخ بهم : ارحلوا عني واتركوني أنام !!!

...

ولم يرحلوا عني .

فقررت أن أرحل عن نفسي . كان ذلك ظهر يوم الثلاثاء ٢٩ تشرين أول (أكتوبر) ، انطلقت بسيارتي إلى غابات « حريصا » ... دوماً أهرب إلى البحر أو إلى الغابة . هنالك فقط أملاً بطارياتي النفسية المستنفدة بشحنة جديدة من حب الحياة لأجل الحياة . وغابات

حريصا كثيفة ، وجميلة ، والبحر يطل في القاع . انك تسند رأسك إلى صنوبرها وتأمل البحر وتغمض عينيك ، فتحس بالرضا المالح يغسل وجهك ، ويخيل إليك أنك تسمع صوت اصطخاب أمواجه . وقبل جونية بقليل انعطفت بسيارتي وبدأت أصعد الجبل إلى الذروة حيث تمثال « سيدة لبنان » ومشهد طبيعي من أجمل مشاهد العالم . أوقفني رجال الجيش وطلبوا مني العودة .. وفوجئت بأن الغابة تحترق ! .. هل شاهدت قط غابة تحترق ؟ .. ربما كان فيرون وحده يستطيع الاستمتاع بمشهد احتراق روما أو غابات « حريصا » ... وأنا لا أنكر أن المشهد كان جميلاً ! .. كل هذه النار تأكل الأشجار وتسري في الجبل بسرعة وشراسة كما يسري الحب في القلب ويحتاج كل شيء ويحرق كل شيء لتغذي النار أكثر ويتصاعد لهيها . وكان الدخان يركض نحو الذروة ويلف الجبل بغلالة تشبه الضباب ، حزينه كحزن القلب بعد انطفاء نار الحب وبقاء الرماد والقتلى ورائحة المشيم وحطام المراكب ...

أعترف ، كفنانة سحرتني المشهد للوهلة الأولى ، ونسيت كل شيء عن أبطال قصتي . وبقيت وحيدة أتأمل ، واخترق قلبي حزن عميق عميق ، فالذي كان يحترق أمامي ليس هو الغابة ، بل هو رمز لكل ما هو جميل وبريء وحي في لبنان ... وليست الأشجار وحدها ما يحرقها قصر نظر المسؤولين وعدم تفكيرهم سلفاً بشراء طائرات حديثة لانعدام الحرائق المتوقعة في بلد حار ومليء بالغابات كلبنان . فالإنسان يحترق في لبنان كما تحترق هذه الغابة أمامي ، والسبب نفسه (الإهمال ، وقصر النظر والتخلف .. إلى آخره) . ولم تعد الغابة غابة ، وإنما رأيت الأشجار تستحيل إلى آلاف المواطنين الذين يشتعلون ويحترقون . وامتلاً أنفي برائحة اللحم البشري المحترق ! صارت الأشجار المحترقة قافلة من الناس المشتعل الرؤوس ... وتعالى الصراخ ، وشعرت بأنني أنا أيضاً أحترق ... وعدت إلى البيت والدوار يلتهمني وفي صدري دخان ... دخان ... ودمع ...

وفكرت « بالتفريك » الذي يصعد فوق هذا الجبل الجميل الذي كان حتى البارحة مغطى بالأشجار والغابات ... اذهبوا أيها الناس إليه واركبوه في رحلة سياسية لا سياحية ! لن تشاهدوا بعد الآن غابة « حريصا » الخضراء ، وإنما ستشاهدون رقعة محترقة من الأرض ، وجثث الأشجار المحترقة مشلوجة في هشيرها ... تأملوها من بعيد وقولوا :

هذه صورة عن مقبرة حياتنا ، وعن المصير الذي ينتظرنا إذا لم ... إذا لم ... (هل أقول الكلمة أم تعرفونها جميعاً ؟) .

...

وعدت إلى أبطال قصتي ، لا مفر منهم ! حتى الغابة لم تعد بلجاً . لقد احترقت ، واحترقت في داخلها ساعات من عمري ، وضحكاتي ، لحظات صفوي المخبأة في جذوع أشجارها . وودعتها وانتهى الأمر ...

وعما قريب أودع أبطال قصتي . في الأسبوع المقبل يتعرف اليهم قرائي وتنتهي علاقتي بهم تماماً . وهذا أمر محزن . دوماً أحزن حينما أنتهي من كتابة قصة وأفارق أبطالها . أشعر أنني ودعت انساناً غالياً : انساناً أحببته بصدق لفترة ومنحته كل وجودي لفترة وأنا أعرف سلفاً ومنذ البداية أن فراقنا كان محتوماً ...

ولكن ... وداعاً ...

وداعاً لمن اجتأني كالانتحار . واستولى على كياني كنبي ! ..

بحزن غابة تحترق أقولها ...

وداعاً « بيروت ٧٥ » وإلى لقاءك مع القراء !

.. وحياتي ملحمة تبدأ من عنقي فما فوق !

« مهداة إلى غسان كنفاني »

وأخيراً ، جاءت « اللحظة الذروة » ...

لحظة امتزاج كل ما في طاقة الإنسان على الألم ، بكل ما في طاقته على النشوة ، في
توتر نادر مروع عجيب غامض ...

وللمرة الرابعة في حياتي ، أعيش تلك الحمى الخلاقة القاتلة ، لالتقاء غروب
الاحتضار وفجر الولادة ، وعناق سلبية الشلل مع توقد التفجر ، فصاحة التوازن
وهذيان القوضى .. عشتها للمرة الأولى وأنا أخط سطور كتابي الأول « عينك قدرتي » .
التهبت بها للمرة الثانية مع كتابي الثاني « لا بحر في بيروت » . وعرفتُها للمرة الثالثة مع
كتابي الثالث « ليل الغرباء » ... وها أنا اليوم بعد طول مخاض على عتبة بلوغ نشوتي
الرابعة .

...

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

وأشعر الآن بالضيق وبالغيب وأنا أتحدث عنها لآلاف القراء ، بل وبالمهانة أيضاً ! ..
بالضبط « المهانة » هي الكلمة . لا ليست « المهانة » هي الكلمة بالضبط ! ! .. ثمة شعور
يفترسني الآن وأجهل الاسم الدقيق له ، وهو يشبه احساس امرأة رضىت بأن تنقل
شاشة التلفزيون لآلاف المشاهدين عملية ولادتها ، وها هي يجلدها وجعها العاري
وفضولهم السري .

لكنني أيضاً أعجز عن الكتابة الآن عن أي شيء آخر .. ربما لأنني أكتب لك وحدك

هذه السطور (أنت أيها الشقي) ، لكنه تشويها المهني ككتاب يدفع بنا باستمرار إلى ممارسة ماسوشية تعرية الذات الحبيبة على شاشة الأيجدية العنومية كالرصيف والمقهى ! ...

أكتب إليك الآن يا غسان رداً على رسالة منك عبرها حوالي العام قلت لي فيها « بالنسبة إليك ، الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق . الكتابة وحدها درعك ، وحدها تجلو حقيقتك ، أكثر مما يجلو أي (ميني جوب) . أنوثتك » .

أكتب إليك لأقول : ها أنا للمرة الرابعة في حياتي أكتشف أنني أدوخ بعض الوقت لكنني لا أدوخ كل الوقت . واني أوظف (دواي) في خدمة الشيء الوحيد الذي هو أنا : الكتابة .

...

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

ويلزميلي أدق باب ذلك الهيكل الكوكب ، حيث النار السوداء تحرق وتضيء ، ثم خطوة واحدة ، وأنتقل بها من ترحال الفجرية إلى الغوص في تلك المغارة الرهيبة التي هي نفسي .. وعلى أرضها أفرش حصيلة ما يبدو من الخارج تسكماً وعبثاً : صيدي وقاتلي وحطام مراكبي وبخوري وبطاقي الصحافية والكاميرا وجواز سفري الممهور بعشرات الاختام ، ودرجاني العلمية وانتحاب الريح عبر ثقب شراعي .. هذه كلها أكوامها إلى جانب شبكتي الخاصة بصيد أسماك الأيجدية ، وما تزال تقطر منها ملوحة الموج العاصف ، وملوحة الصمت الدامع الممزوج بأمطار شوارع نسيت اسمها في مدن نسيت لياليتها ...

...

قبل دقائق ، قادني إلى هذه الغرفة ببنية بيكاديلي للشقق المفروشة رجل أعور ، حديق جيداً في حقائبي وبدأ في عينيه بريق غير ودي وهو يتخيل قمصان النوم الشفافة التي لا بد وأنها تحتويها ، ثم أرشدني إلى قفل الباب بلهجة ذات معنى وكأنه يشتم الغانية الجليدة التي حلت بالمبنى ... كدت أصرخ به : « بعينك العمياء حديق بي جيداً وبحقائبي تفهم » .

ميني جوب : موضة ثياب قصيرة تكشف عن الساقين حتى منتصف الفخذين كانت شائعة في أواخر الستينات .

لكني لم أصرخ ، وهو تابع التحديق بعينه التي يتوهمها سليمة : عين البصر لا البصيرة ..
ها أنا الآن أكتب اليك يا غسان ، وقد تناثرت حولي الأوراق والمخطوطات والمذكرات
التي كانت تملأ حقائبي الثلاث ، وبعد لحظات أفتح الحقيبة الرابعة (جسمتي) ،
الملوثة بكلمات لم أقلها بعد ، وما زلت أجهلها ، المسكونة بمخطوطات أحداث لما
أفك شيفرتها بعد ، وبصور ووجوه لما أترجم بعد حركات شفاهها المتوترة وصرخاتها
الخرسى .

وفجأة يا غسان ، تمتلئ الغرفة بهذا كله .. وأجلس أقرب الوجوه تخرج من سطور
الرسائل ، وصرخات الرجال تتعالى من صدورهم ، وأحزان النساء المكسورات تتدفق
من قوافلهم داخلي ، ويهطل المطر ، وتنفخ الريح ، ويتعاقب الليل والنهار والصاعقة
والصحو ، وفي لحظات تتعاقب الفصول عليها على روعي : فصول الزمن الذي أنا
شاهدته وضحيته وجلادته ! ...

أتذكر الآن يا غسان بوضوح حوارنا الأول في مطلع عام ١٩٦٤ . أرى الآن
بوضوح وجهك النمر الذي عرفته منذ بدأت مأساتي وأسطورتي معاً أي منذ هجرت
مدينتي دمشق وبدأت رحلتي نحو جحيم الوعي والصدق مروراً بطريق بيروت .

قدمت لك كتابي الأول « عيناك قدرتي » هدية . وقلت لي « لقد اخترت طريقاً
شاقاً . ستلتقيين بكثير من الذئاب » . قلت لك « سأصير ذئبة ! » قلت : « لا أعني
الذئاب بمفهوم الأفلام المصرية التقليدية . لا أعني ذئاب الجسد . أعني ذئاب الوعي
والاكتشاف . ذئاب التخدير والضياح والصحو والانتماء وذئاب الحيرة . الذئاب التي
سوف تنبت في داخلك » ..

وظللت يومها صامتة يا ذئبي العزيز ، وأنت تقلب الصفحات الأولى في كتابي
الأول ، وتقرأ الاهداء لأني : « إليك ، يا أول من أحببت ، لأنك علمتني كيف أصنع
قدرتي » .. همست وقد أضاءت عيناك بذلك الشعاع الأخضر الداكن : « هل قررت
أن تكوني من الذين يصنعون أقدارهم بأيديهم؟ » .. ظللت صامتة واستمتعت بنظراتك
وهي تضميني إليها بحنان مصلوب عتيق يرقب نصف حزين نصف ساخر (طالبة صلب)
مصرة على النجاح في عملية الصلب الذاتي ودرب الجلجلة الداخلية ...

كان ذلك منذ أقل من خمسة أعوام تقريباً يا غسان ... وأنت دوماً تؤكد لهم :
« الكتابة حقيقتها » ... وحينما لا أكتب تدافع عني بقولك : « ها هي تعيش مرحلة
الاستسلام الشجاع للحقيقة الأشياء ، لكنها لن تلبث إلا أن تستعيد ذاتها وصوتها » ...
وحدهك تقريباً تؤمن « برأسي » رغم عدم كرهك لما تبقى مني !! ...

يسألونني هم ، أحياء وأعداء : « لم فقرأ لك نتاجاً أدبياً جديداً منذ زمن طويل .
ماذا حدث ؟ أهـي لعنة الصحافة واستنزافها ؟ أم لعنة التشرد ؟ أم صباك العاثر ؟
الأنثى فيك بدأت تلتهم كاتبة القصة ؟ » يسألني بعضهم بطيبة وحب ، ويسألني
البعض الآخر بشماتة مهزوم يذكر مهزوماً آخر يهزيمته . وكنت أقول لهم الحقيقة :
الأخرى ما تزال هناك . ربما أكثر من أي وقت مضى . المفجع أنني وحدي أعرف
ذلك ، إذ إنكم لا تستطيعون أن تعوا وجودها إلا بعد أن تثبت لكم ذلك على شاشة
كتاب مطبوع .

ويسألونني : متى ؟

وأقول : لا أدري ! ...

...

ثم حدث الأمر فجأة ... وليس بالضبط « فجأة » .. فالعمل الأدبي ليس وليد
الصدفة ، ولا لقيط اللحظة .. وكما يسبق تفجر الينابيع مرحلة صامتة من اختزان التربة
للمطر والندى وربما الدموع ، وكما الكمأة جذورها لا مرئية في رعد سابق : كذلك
كانت أيامي الأخيرة المذوقة كلها منذ صدور كتابي الأخير « ليل الغريب » في حزيران
١٩٦٦ .

وبعد مرحلة أستعير تسميتك لها ، هي « مرحلة الاستسلام الشجاع للحقيقة الأشياء » :
جاءت اللحظة الذروة ... وما أنا في شقة مفروشة مهجورة منسية لا أحد يعرف فيها ما

• عانيت مرحلة امتدت بين ١٩٦٦ (وقت صدور ليل الغريب) حتى عام ١٩٧٢ (يوم صدور كتابي :
رحيل المرافئ القديمة) لم يصدر لي فيها أي عمل قصصي . وللأسف صدره رحيل المرافئ القديمة
بعد موت غسان كتفاني بأشهر !! ...

أنا ولا أحد يعرف خارجها أين أنا ، أبداً أخيراً إعداد روايتي الأولى « السقوط إلى القمة » . فللعمل الأدبي توقيته الخاص . قد يأتي « قبل الأوان » في نظر بعض الناس . وقد يأتي أيضاً « بعد الأوان » في نظرهم . ما لا يفهمونه هو أنه لا علاقة لهم بهذه التفاصيل ، وإن له توقيته الخاص . العمل الأدبي لا يعترف بتذكير الناشر حول « بداية موسم النشر » . لا يعترف بتوقيت خيرا « العلاقات العامة » . لا يعترف بتوقيت (الأصدقاء) الذين في صداقتهم ما يجعلك تحلم بأعدائك وتتوق إليهم !! ...

الأدب تجمع وتحمّر وتوازن ، وأدب (البوزات) الذي يبدأ بإرضاء الأصدقاء وصالونات الحلاقة ، ينتهي تحت الشوار ومن ثمة في حفل كوكتيل بأحد الفنادق الفخمة .. وأنا لا أنتهي إلى (الكرفال) رغم أنه يحل لي أحياناً الاندساس بين صفوف (نجماته) على سبيل المراقبة لا (المصاهرة) .. وحتى أنت ، تخاف عليّ أحياناً من نفسي وإلا لما كتبت لي « اطرحي مرة وإلى الأبد حيرتك الأنثوية المغيظة بين رأسك وركبتك ، فاكسب مرة وإلى الأبد رأسي ورؤوس الآخرين ، وتكسين رأسك » . بالمناسبة ، رسائلك يا غسان هي أجمل ما قرأت ، وأجمل ما سيقراه الناس بعد موتنا معاً . أقولها الآن ، الساعة ٧ و ١٨ دقيقة من مساء يوم ١١/٥/١٩٦٨ ، ولكن أطفالاً يولدون في هذه اللحظة سيرددونها فيما بعد عشرات الأعوام ، وسيرددها أولادهم من بعدهم ... رسائلك إليّ هي أجمل ما كتب في اللغة العربية بعد القرآن ! ..

* * *

ها أنادي هنا ، وحيدة ، ملعونة ، تخوف الأمهات بناتهن بمصيري في معرض حضهن على تعلم فنون الطبخ ومخادعة الزوج .. ها أنا هنا ، نائية ومهجورة ودمشق بصفتي من ذاكرتها ودمغتي بالرفض .. حينما تفوح من أوراقي رائحة موسم التفاح المقبل ، وزهر الليمون الذي سينبت في حقول وري ، أحسني قوية مثل أميرة جحيمية ، وبريئة ، مثل لبوة تفتش في حقول اللغة عن فريستها .. وأحسني أستطيع أن أغفر لنفسي أي شيء وكل شيء ، إذا استطعت أن أتعلم المزيد عن ردم الهوة بين اللغة والفكر ، وإذا استطعت أن أنمو فوق آلامي وأن أنتشر كالعشب داخل أرض آلام الآخرين ...

* * *

« السقوط إلى القمة » : أشهر رواية عربية غير منشورة . كتبها فسرقي مخطوطها في مطار أجني ، ثم أعدت كتابتها وضاعت ثانية ، ثم أعدت كتابتها وكانت جاهزة للطبع حين احترقت في الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ يوم انفجر صاروخ في غرفة مكنتي وأتى على كل ما فيها .

أين أنت يا غادة ؟ ماذا تفعلين بنفسك في غرفة مفروشة خلف الغرباء
فيها آثار شهواتهم وقيثهم ، أنت أيتها الوردة الدمشقية التي نبتت فوق نجمة في « ساحة
النجمة » ؟

أنا هنا . وحيث أكون تكون دمشق وساحة النجمة .. في البداية كنت أظن أن
« اللحظة النروية » بحاجة إلى مكان هادئ وناء ومنزل كهذا المكان .. الآن ، أرى أن
الأمر لا يحتاج إلى أكثر من أن أخلع عني جلدي القسري ، جلد الحياة اليومية والعلاقات
الآتية ، وأعلقه في مقعدي بالمقهي ليقده الضجر . بعيداً عن جلدي ، وعن صوري
في النفوس والصحف ، وعن الأحكام بالإعدام الصادرة بحقي من خلف أقنعة الحبث
الاجتماعي ، إني أنا أظل أنا ، وحياتي ملحمة تبدأ حيث أختار ، فقد أعلنت نفسي
كائناتاً حياً ، ما هو يعبد لتزواته ، لكنه أيضاً ليس خجلاً بها ! ...

...

غسان ، أيها الشقي ..

لقد حملت معي إلى هذه الغرفة مرآة متوسطة الحجم علقته على مسمار واحد عجيب
الموضع : فقد وجدته مدقوقاً في جدار عار على علو خاص ، إذ إنه لا يتيح لي أن أرى
من نفسي في المرآة ، أكثر من عنقي فما فوق ! ..

أتأمل نفسي في المرآة ، ويخيل إليّ أن ما تبقى من جسدي غير الظاهر فيها قد تلاشى
تماماً .. وأنها ليست صدفة أن يكون المسمار مدقوقاً في هذا الموضع بالذات . كأنما هو
مرصود لذلك . كأنما دقته اليد نفسها التي تخطط لقدري ، والتي كنت بوقاً لها يوم
كتبت لي « بالنسبة إليك الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق » ...

من دق المسمار ؟ أظن أنني أنا فعلت لحظة دخولي إلى الغرفة ! ...

...

أين أنا ؟

ما الفرق ! ... في مكان ما ، في غرفة ما ، أعيد ولادة ذاتي للمرة الرابعة بعد

« عيناك قدري » و « لا بحر في بيروت » و « ليل الغرباء » . الغرفة حقيرة وبائسة ولا
تليق بزهرة الياسمين الدمشقية القادمة من ساحة النجمة بدمشق ؟ ..

ذلك لا يهم ما دام العالم نضراً ومتألّقاً داخل حجرات روحي ، ومن النوافذ الشاسعة
لقلبي تهب رياح تشبه الموسيقى ... وفي موضع المرأة أقرأ قدري ! ...

وهذا أيضاً نقد أدبي

كل صباح أطلع في الصحف عمود الوفيات لأطمئن إلى أن اسمي ليس بين الأسماء ، ثم أنتقل فوراً إلى صفحة الجرائم لأنها ، في نظري ، تعبر عن واقع الشعب وأوجاعه وانفجاراته أكثر من البيانات الرسمية كلها . وكل صباح أشتري أن أقرأ حادث سطو على مكتبة . أجل ، حادث سطو على مكتبة ، يقوم فيه « الجناة » بسرقة بعض الكتب الجميلة . فالتاس يسرقون كل يوم ، يسرقون الذهب والماس والحشيش ودواليب السيارات والسجائر ، ولكن لم يحدث قط أن حوكم انسان لأنه سرق كتاباً مثلاً ! وأقصى أحلامي أن يتم سطو على مكتبة ما من أجل سرقة كتب — من بينها كتبى — لا بغرض التجارة وإنما القراءة (من يشتري كتاباً ؟ ومتى كان الكتاب غير خسارة مادية للبائع والشاري ؟) .

وهذا الأسبوع تحقق جزء من أحلامي ... فقد تبينت أن كتابي الحديد « حب » الذي أرسلته إلى أصدقائي من صحفيين وكتاب ، ضاعت أكثر نسخه فلم تصل إلى أصحابها وإنما وصلني أنا أكثر من عتب ...

إلى الدين « سرقوا » كتابي شكري العظيم . لقد غمروا قلبي بالفرح ، لأنه لم يحدث كثيراً في بلادي أن أحب أحد كتاباً إلى حد السرقة ...

إلى أولئك المجهولين الطيبين البسطاء أقول : عملكم هو أجمل نقد أدبي كتب أو سيكتب عني ! فشكراً ، وغفراناً لكم !

قلبي بلاط الغربية !

رسالة ...

... ووصلتني من أحد قرائي في مستشفى المجانين ... رسالة محملة بالأمسى . بالوجع .
بالضياع والعذاب . عشر صفحات كاملة مشحونة بحمى الهذيان ...
وضممت الرسالة إلى قلبي ، فقلبي بلاط الغربية ...

وتذكرت رسالة مشابهة كتبها لي رجل ارتكب جريمة ، وبعد أن سطرها انتحر ...
ووصلتني في البريد بينما كان الدود قد بدأ يلتهم جثة كاتبها (مهدي اليقوي) ...
كثيرة هي الأحزان التي تصلني بريدياً ! وحين أستلم بريدي أشم منه رائحة المطر
والدمع ، ومن بعضه يقطر الدم ... رسائل من السجن ، من المطارات ، من آبار
اليسأس ...

وتذكرت مئات الرسائل الحائرة ، المتأللة ، الغاضبة ، المفترسة ، التائهة التي تصلني
كل أسبوع ، وأضرم وجمع قلبها إلى وجع قلبي ، وأقرأ في عذابها نوطات مختلفة الإيقاعات
لعذابي كأنسانة وكمواطنة ... كأني كاهنة الوجع في ليل الغرباء ! ..

ووعيت فجأة : « لم يكتب لي أبداً إنسان سعيد ! ! ! »

لم يكتب لي أحد ليقول لي انه سعيد راض ! فلماذا ؟

تري لأن السعداء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ! ؟

لحظات حارة

تعلم الناس العمل ، لكنهم لم يتعلموا الحياة .

- مكسيم غوركي -

« أحبوا أعداءكم ؟ لا ، بدلاً من أن تحبوا
أعداءكم ، عاملوا أصدقاءكم بشكل أفضل قليلاً .

- اد هوي -

إنه لصديق جيد . فهو لا يطمئن من الخلف ،
ولنما مواجهة فقط .

- ليونارد ليفنسون -

لمسة حنان ... قبل السفر !

تسلمت اليوم نتيجة تحليل دمي :

قرأت في البطاقة « 0 » ايجابي .

لم تذكر البطاقة أي شيء عن درجة غليان دمي ، ولم يلحظ أحد وجه حبيبي الذي يسبح كالسمكة داخل شراييني . ولم يذكروا شيئاً عن درجة المראה في دمي ، وحدود الشوق والنسيان ...

لا شيء سوى « 0 » ايجابي .

وسألت الطبيب عن معنى ذلك فقال لي : معناه أن دمك صالح للنقل إلى جميع الناس ، ويمكنك أن تمنحي دمك إلى كل أصحاب الفئات الأخرى ، ولكن ، في حال حاجتك إلى الدم ، لا يقبل جسدك غير دم من فئتك . بعبارة أخرى ، أنت قادرة على العطاء أكثر من قدرتك على الأخذ . تعطين الجميع وتأخذين من فئتك وحدها . تلك مأساتك ! ..

قلت له : لا ، بل تلك حكايتي . ويوم أفقد قدرتي على العطاء ، أموت .

وكثيرون من الذين منحتهم من دمي في لحظات حاجتهم ، منحوني من سهمهم . ولكن تلك حكاية أخرى ! ..

. . .

تمر بك أيام تشعر فيها بأن كل شيء يثقل على صدرك ، الذين يحبونك والذين يكرهونك والذين يعرفونك والذين لا يعرفونك . تشعر بالحاجة إلى أن تكون وحيداً كغيمة . أن تعيد النظر في أشياء كثيرة . أن تعود إلى ذاتك مشتاقاً لتنبشها وتواجهها بعد طول هجر . أن تفجر كل القنابل الموقوتة التي تسكنك .

في أيام كهذه ، نصير المدينة كابوساً ، تمطر ضجيجاً لزجاً ، ورنين الهاتف يفترسك ، وأصوات الجميع ، الجميع ، تحاصرك بודהا العدواني الرتيب حيث لا شيء مجانياً وكل شيء يعطى له فواتيره . ولا حتى رعشة بلا مقابل ! ..

ماذا سوى الطبيعة تهرب إليها ؟ ..

اليوم هربت إلى قرية « غزير » اللبنانية الرائعة . التصقت بجسد الأرض العظيم . تكومت فوق الحشائش والتراب كما في رحم أمي التي لم أعرفها . (آه الأرض ! منذ دهور لم أدفن وجهي في التراب . لماذا لا نعود إلى التراب إلا لحظة الدفن ؟) وسمعت صوت الريح وهي تركز عبر السنابل ، وعبر رؤوس أشجار الصنوبر القانية الخضرة مثل سيمفونية مدهشة الصفاء ...

في القاع كان البحر ، وقرميد بيوت « المعاملتين » ، ثم تتصاعد من الوادي رؤوس الأشجار ، وصوت الريح عبر أمواج الخضرة ، صوت الريح عبر أزهار « شقائق النعمان » والوزال . وبصوت الريح اغسل أذني من الأصوات العالقة بها كالصدا ، كلمات كاذبة واجتماعية ومراثية ومتزلفة وواعدة ، كلمات وأصوات لأشخاص يحدثوني عن أنفسهم وأعجادهم الأدبية والعاطفية وعن الآخرين ، وأكاذيب ، وقصص عمرهم ، وأكاذيب ، وأصوات وأصوات وزعيق فرامل سيارات و « جيرك » و « فليبرز » ... آه تعبت !

بصوت الريح الأزلي اغسل أذني ودماعي ، وبالتراب أفرك قلبي ، وأعود لأتمشى على الطريق الفرعية بريئة وهادئة مثل خروف صغير ...

ومرت بي قروية بسيطة لم أرها قط من قبل ، وعلى الأرجح لن أراها أبداً بعد . ابتسمت لي وقالت « بونيجور » (أي مرحباً) .

هكذا . كلمة لطيفة مجانية كلها أنس . من يصدق ان ذلك ما يزال يحدث في عالمنا المعاصر ؟ ..

دهشت ... ذهلت ... غاب صوتي ، وحين للمته لأجيبها كان قد غيبها المنحى ولم تسمعي .

ووقفت أمام الوادي العظيم وصرت أصرخ بملء صوتي : « بونيجور » ... « بونيجور »

... « بونجور » ! .. والصدى يبعث .

• • •

حين تقرأون هذه الكلمات أكون بعيدة في لندن ، افتقدوني لأنني سأفتقدكم .
بل افتقدوني حتى ولو لم افتقدكم . امنحوني شوقكم عجاناً ... لمسة حنان قبل السفر ...
بلا مقابل ... أهرف أن هذا كثير ! لذا ، أريده ...

• • •

أيها الشقي

افتقدني ! ..

حكمة من كربلاء

(إلى ابتسام عبد الله وأمير الحلو
لذكرى زيارتنا للنجف وكربلاء)

الكتابات العفوية على الجدران ، في الأزقة الشعبية ، تعبر أحياناً عن واقع الشعب ، كما تفعل الصحف .

ولكن الذي يسحرني حقاً هو الكتابة على السيارات .

وفي بغداد نجد السيارات مثل جرائد حائط متقلة ... لكل سيارة ملاكها الحارس ، وإمامها المفضل ، وحكمتها الخاصة .

وعلى إحدى السيارات خطفت انتباهي هذه العبارة : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تخزن بالله معنا . »

وكانت السيارة صغيرة ومتعبة ، وكان واضحاً أنها فقدت دواليبها أكثر من مرة . وأنها تعثرت في الدرب أكثر من مرة ، ولكنها استطاعت في كل مرة أن تنهض من كبوتها لتعلم درس الحياة الأول : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تخزن ... »

هل نملك إلا أن نخزن ؟ هل بيننا من لا تمثله تلك السيارة العراقية الصغيرة ، التي ركضت أمام عيني ذات صباح ماطر بين بابل وكربلاء وكنت أرقبها كما يرقب إنسان نفسه في المرآة ؟ ..

صورة تلك السيارة ألحّت علي طوال الوقت ليلة رأس السنة من هذا العام ..

كنت ، في ما مضى ، أودع سفينة العام السابق الفارقة بتذكر قول أفلاطون : « لا تشغل فكرك بما ذهب منك ، واحفظ ما تبقى منك » . وكنت دوماً أغضب لهذه

الحكمة ، إذ كيف أحفظ ما تبقى مني إذا كان ما ذهب مني هو القلب أو الشهية إلى الحياة مثلاً ؟ . فحين يفقد الإنسان شيئاً هاماً حيوياً ، لا يملك إلا استعادته لأجل أن يحفظ ما تبقى منه !

وهذا العام ، تبخر أفلاطون من رأسي ، وظلت حكمة ذلك العراقي القروي تلح على صدري « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن ... »

استحضروا معي أيها الأصدقاء أيام شِدَّتكم (هل بينكم من لم يمر بها) . واحصوا أصدقاء الشدة — إن وُجدوا !!! — واحصوا خناجر الأصدقاء المتلهفة للانقضاض على صدوركم لحظة تسقطون ... وأتمنى لكم عاماً بلا سقوط كي لا تكتشفوا كم أنتم وحيلون ... مثلي !

وإذا كان بينكم من هو حائر في أمر الكتابة على سيارته ، فأنا أقترح هذا الشعار : « أنا سعيد ، فيوم سقطت ، لم يَطْمَئِنِّي صديقي » !

من زمان كان المثل يقول : « الصديق وقت الضيق » ، وفي هذا الزمن الرديء يصبح تعديله ليصير « الصديق من كفأك شره وقت الضيق » !

قصة حب

حينما شاهدتها أحسست بما يحس به الانسان حينما يرى حبه الوحيد الحميم بعد فراق أعوام كانت متوقفة إلى جانب الشارع ، وكان المطر يغسل عن وجهها الغلاء فيبدو الصدا وقد بدأ يأكل بعضاً من أطرافها ... كانت بائسة ، مهلهلة ، ومع ذلك استطعت أن أميزها ، كانت تمطر وتكاد تحجب عني رؤية رقمها ... ومع ذلك عرفتُها .. انها « الكارمنجيا » البيضاء (الفولسفاكن السبور) التي عايشته جنوبي وضياعي طيلة سبعة أعوام بين ١٩٦٤ يوم لقائي الأول بها حتى أواخر ١٩٧٠ يوم فراقنا ... ولا بد لي من الاعتراف بأنها يوم الثمينا للمرة الأولى لم تكن بيضاء . كانت سوداء اللون ، وليس في بيروت سيارة (سبور كارمنجيا) سوداء سواها . لكن رجلاً أجنبي (على طريقته) ، وأحبته (على طريقي) بدّل لي لونها إلى الأبيض يوم تركتها في عهده ذات مرة ، وسافرت . لم يكن الكرم طبعاً مبعث هذه (الخدمة) . لقد قضى عاماً وهو يحاول عبثاً تبديل شخصيتي وفشل ، وها هو يبذل ما استطاع تبديله مني : لون سيارتي ! وافترقت عنه ، واحتفظت بالسيارة ، لكنها احتفظت بلونها الأبيض لأنني لم أكن أملك النقود لإعادة طلاؤها بالأسود . وبقيت أنا كاللؤلؤة السوداء ، ملعونة ، ومختلفة !!

ولا بد لي من الاعتراف بأنني طوال هذه المدة عاملتها كسيارة فقط ، وكجرد سيارة آلة ، أشتريها يوم أشاء وأبيعها يوم تتعب كما يبيع السادة عبيدهم متى بلغوا الشيخوخة ... واني عام ١٩٧٠ وقعت في غرام مرسيدس حسناء صبية قوية ، وبعث سيارتي القديمة ورفيقة أشقي وأغلى أيام عمري دون أي حس بذنب أو شفقة ... فقد تصادف أن مرضتُ ، وكانت « الكارمنجيا » متوقفة بالصدفة أمام دكان جارتنا « الكواء » . وطال مرضي تسعة أشهر (كنت في الحقيقة حاملاً) ، ولم يعد لبطني المنتفخ مكان بين المقعد والمقود في سيارتي السبور) ... وظلت السيارة متوقفة ... وجاء ذات يوم أحد عمال البلدية فشهد أن الأقدار تكاثرت تحتها وحولها وتعذر تنظيف الشارع لعدم تبديل

مكانها ، وجاءت الشرطة البلدية وسجلت محضر (ضبط) بسيارتي بتهمة توسيع الشارع (!) ثم اعتادت الشرطة البلدية على سيارتي فصارت تأتي كل أسبوع لتحرر بها ضبط توسيع شارع ، (بعد أمجادنا مع شرطة السير وعشرات الضبوط غير المدفوعة وصلنا إلى محاضر شرطة البلدية !) ، ثم بدأ جارنا « الكواء » يزورنا أسبوعياً ، ليبلغني بالمحاضر المحررة بسيارتي ، وليشكو بلطف من الأقدار المتراكمة تحتها ، بل انه أخبرني بأن المطر الذي تسلك إلى داخلها من الشقوق تسبب في نمو الطحالب بداخلها وأنها صارت مزرعة لزراعة الفطر ، وهكذا قررت ذات يوم أن أحمل بطني وأغادر فراشي لأرى ما يدور في مزرعتي - السيارة ، وفعلاً وجدت نباتات نادرة خرجت من مقاعدها وعريشت على « عجلة قيادتها » و « كابحها » وبدأت تغطي نوافذها ، ثم انها صارت مسكونة من قبل بعض الحيوانات « البر - مائية » التي كانت تسيح في الماء المتجمع في قعرها ثم تقفز بفرح على مقاعدها ... وعدت إلى البيت مكسورة الخاطر ، لأنني عجزت عن حشر بطني داخلها ، لقيادتها إلى أحد (الكاراجات) أو مأوي السيارات - العجزة ، وحينما تطوع « الكواء » بذلك ، اكتشفنا أن بطاريتها أسلمت الروح إلى الليل ، وأن السيارة تحولت إلى نصب تذكاري لأيامي المجنونة المسعورة تقطنه النباتات والحيوانات كأنه هيكل منسي في أحد الأدغال .

وكان لا بد من أن يحدث شيء . وقد حدث ، فقد جاء الكواء وعرض عليّ شراءها كي يتخلص منها ... وعرض علي مبلغ ٥٠٠ ليرة ثمناً لها (!) ورفضت المبلغ ، وأصررت على أن يدفع لي ٤٥٠ ليرة كي يغفر لي خطاياها ! ...

واختفت السيارة ولم أحزن لأجلها لأنني كنت مشغولة بأوجاع الحمل والولادة .. ومرت الأيام وخرج طفلي إلى الحياة ، فتوقف رحمي عن العمل وعاد قلبي وجسدي إلى الحياة ... والتقيت بها صدقة بعد طول غياب ... في مصابيحها المكسورة نظرات عاتبة ، والمطر الذي يقطر منها يشبه دموع الأسى ...

وتفجر في قلبي الحب العتيق ، والذكريات كلها ، والحكايا كلها ، كل باب فيها يروي لحظة جنون ، ولحظة نشوة ، وكل مقعد فيها أطبق شفتيه على آلاف الأسرار . واقتربت منها ، وفتحت بابها ، أحسست أنها ما تزال سيارتي أنا ، ولتذهب عقود البيع والشراء إلى الجحيم ...

سيارتي أنا ، كما يصرخ العاشق بأن حبيبته هي حبيبته هو ، دون أن يبالي بمن

زوجوها له قسراً ... كانت المفاتيح بداخلها ... ووجدتني أستقلها ، وأمضي بها بعيداً إلى الجبال كما كنت أفعل ، ووجدتني أفتح نافذتها وأمد برأسي منها وأصرخ بملء صوتي في الفضاء الرحب كما كنت أفعل ، ووجدتني أهيئ بها في الدروب بقية الليل ثم أغفو على مقودها عند شاطئ البحر كما كنت أفعل ، ووجدتني مع خيوط الفجر الأولى أعيدها إلى حيث وجدتها أمام دار صاحبها ... وأترك المفاتيح بداخلها كما وجدتها ... وأمضي بعد ذلك اللقاء تتأكلني غصة موجعة ... وتساءلت : ترى هل من عادة (صاحبها) الحديد أن ينسى المفاتيح بداخلها ؟ ... وهل سيلحظ قضاءها الليل معي وخيانتها (الزوجية) له ؟ ...

مع مساء اليوم التالي عدت إليها ...

كانت مغلفة بإحكام ، وقد أوصدت أبوابها كلها من دوني . تراها فعلت ذلك بنفسها ؟ أم أن (مالكها) الحديد يقسرها على ذلك ؟ ... أم أنها تحاول أن تقول لي ببساطة : ان شيئاً لا يتكرر ... (ولا نستطيع أن نشرب من النبع مرتين) ؟ أم ... ؟ أم ... أم ماذا ؟ ...

في اليوم التالي قررت أن كل شيء نجهه يجب أن يتكرر ، وأن علينا بطريقة ما أن نشرب من النبع مرتين ، وأن نبعث الحياة في حكاية حب كنا نتوهمها ماتت ... وقررت أن أستعيد السيارة بأي ثمن .

ذهبت إليها ، فلم أجدها

سألت أهل الحي جميعاً ، فقالوا أنهم لم يروا طيلة حياتهم سيارة متوقفة في شارعهم كالتي أتحدث عنها ! ..

ذهبت إلى الكواء لأسأله عن اسم الشخص الذي اشتراها منه ، فوجدته قد مات في الليلة السابقة .

سألت أرملة ، فقالت أنها لم تسمع بالسيارة ولا بي .

سألت سكان البناء الذي كانت السيارة متوقفة أمامه ، فأشاحوا بوجوههم عني ، وأقسموا أنهم لم يسمعوا بشيء كهذا ..

لكنني لن (أياس) ، وأقسم أنني سأشرب من النبع مرتين بطريقة ما !! ...

ماتوا

ما دام من واجبنا أن نتحدث عن فضائل الأموات ،
دعونا نقسو عليهم ما داموا أحياء ! ...
- جون سلون -

إنك لا تعلم حقاً معنى الموت إلا حينما تعرف
الحب .
- كاترين هتواي -

يجب أن نيكى حين يولد الناس ، لا حين يموتون .
- مونتسكيو -

ما دامت حياتنا في هذا العالم البائس كما هي ،
فإن الموت هو على الأرجح أول مرة نلتوق
فيها طعام الحرية .
- اسحق روزنفلد -

فلنعترف

يوم صدر لى جبور كتابها « فتاة تافهة » تعرضت الفتاة لحملة عنيفة ، وهوجمت بقسوة . الذين لم يهاجموها صمتوا . لم يتقدم أحد للدفاع عنها .

ومرت العاصفة . صعدت لها ابنة الثامنة عشرة ربيعاً وظلت تكتب . وبدأنا نقرأ لها قصصاً قصيرة جيدة ، براعم الموهبة واضحة فيها ، وخمرة تمزق أصيل تبشر بالتعتق بين حروفها .. وكانت قصة « الخلود والحذاء الجديد » وغيرها .. أعجب بها عدد كبير من الكتاب ، سمعته يطرونها شفها ، لكن أحداً لم يكتب كلمة ، لم يعبر عن رضاه كما سبق له أن عبر عن سخطه . أنا أيضاً لم أكتب ، فقد كنت مثلها أخط السطور الأولى في درب عطائي ، وأواجه قمعاً شبيهاً بالذي تواجهه (ها قد بدأت أرشو ضميري وأفتش عن مبررات لصمتي !) .

وماتت منى .

إني أراها تتأملنا الآن بعينين زجاجيتين يطل منهما حنان ساخر مرفع يشبه الشفقة ، وكبرياء لا مبالاة لا يشوبها العتب ، ونحن نتدافع كالأطفال المذنبين الخجلين لنكتب عنها .. وأكثر من ثلاثين مقالاً عن (الأصالة المهدورة) يبحثون عن مقرها .. كتب أنسي الحاج ووليد اخلاصي ويوسف حوراني وجميل جبر ولور غريب ونور سلمان وسهيل مطر وعبد الكريم أبو النصر وأمين الداعوق .. و .. و .. وأنا أيضاً ! بكيناها بصدق .. وبأنانية .. باخلاص ، وبمرارة ورعب .. كتبنا .. بعد فوات الأوان .. فطفلة اللاشيء قد سبقتنا إلى (هناك) ، وحيدة ، وليس على شفيتها ابتسامة رضى .. لم تمنحها أيام كانت ترتعد برذاً جمرة تشجيع واحدة .. لم نشتل في درب طموحها زهرة واحدة .. لكننا اليوم نفرس جثتها بأكرام الورود والأكفان .

ما معنى ما حدث ؟ ..

هل هو افتقارنا إلى الموضوعية في النقد ؟ .. افتقارنا إلى الجرأة في ابداء الرأي ؟
افتقارنا إلى (الرأي) ؟ عجزنا عن تكوين قناعات ندافع عنها ؟ أنايتنا ؟ تضاؤل احساسنا
بالمسؤولية تجاه عطاء الآخرين ؟ استهتارنا واطلاقنا الأحكام السطحية السريعة دون أن
نكلف أنفسنا عناء التدقيق ؟ حاجتنا إلى موضوع مأساوي نتخذه قالباً نسكب فيه أحزاننا
الفردية ونخافنا الشخصية ؟ تضامنتنا مع منى ضد العدو المشترك « الموت » ؟ .. أم أن
كل ما يملكه أحدنا للآخر هو كفن واكليل ومرثاة ؟ ..

ان فطرة محايدة إلى العالم حولنا تدلنا على أن حادثة منى ليست فريدة . لقد تكررت
أكثر من مرة في أكثر من مكان وزمان .

لقد هاجم النقاد « ملفيل » لما ظهرت راعته (موني ديك) واعتبروها فشلاً ذريعاً ،
لكنها بعد موته صارت (بقدرة ناقد) الملحمة الأمريكية الأولى .. وابسن ، الكاتب
المسرحي الخاد ، اضطر إلى مغادرة بلاده هرباً من ثورة مجتمعه على مسرحيته « عدو
الشعب » فاحتضنته أرض غريبة وقدرته .

ما حدث لمنى هو جزء من قدر الأصالة حينما تواجهها الطبيعة البشرية المشتركة بين
الناس جميعاً .. ولعل من بعض التعليل لهذا كله هو أنه (لا كرامة لمنى في أرضه) ..
وعلى (الأنبياء الصغار) أن يحملوا صليب الأصالة وشمساً من جمر ، ويمضون في أسواق
العمر تحوطهم اللامبالاة والاساءات ليقطعوا أطول شوط ممكن ، حتى إذا ما سقطوا ،
ورحلوا إلى (هناك) وطننا الأم ، ولم يعودوا من رعايا عالمنا ، بكيئناهم بمرارة وبحرقه ..
وبعد قوات الأوان .

منى . إني نخجلة .

أسطورة البدو

تقول الأسطورة العربية :

ان قوم لوط ظلوا أعراماً ينظرون إلى الخلف بحسرة وأسى ، يحدقون دونما جدوى في ماضٍ ذهب إلى غير رجعة ، وأيام كانت ولن تعود (وهل لماضٍ أن يعود ؟)
ولذا عاقبتهم الآلهة على حماقتهم تلك . حولتهم إلى أصنام من الملح ملوية الأعناق إلى الورااء ... وحكمت عليهم بأن يظلوا كذلك إلى الأبد ...

...

رغم أن هذه الأسطورة هي ملحمة عمري التي أحتسي بها من التحول إلى تمثال من الملح ملوي العنق إلى الورااء ، لا أملك اليوم إلا أن أروي لكم حكاية من الماضي الذي أحرص دائماً على ردم مداخل كهوفه .

وعنوي في صفحة الماضي تلك ، التي سأشرها أمام أعينكم ، هو احساسي المرير بأن رائحة الحقيقة المعاشة ، ما تزال تنبعث منها أكثر مما تنبعث من حبر دواتي ... وأن تلك الحكاية رغم رحيلها عبر منحنى الأيام ما تزال ألصق إلي من رثي ! .. وأكثر واقعية وحتمية من تنفسي !

...

لندن . يوم ما . شهر آب ١٩٦٧

عام من الركض تحت المطر في لندن ، في شوارع مفروشة بالثلج والعتمة والغربة ، والشمس لا تطلع إلا عبر رسائل أصدقائي إلي ...
رسائلها هي بالذات .

سميرة عزام . الأدبية الكبيرة ، التي وقفت إلي جانبي يوم وقف عالمي كله تقريباً

ضدي ، وشجعتني منذ وصولي إلى بيروت من دمشق ، قولاً وكتابة وكانت نِعَمَ
الأديبة المشهورة التي تساعد من تؤمن بموهباتهم .

ذلك اليوم كنت أتوقع أن تصلني رسالة منها ... وحدها لم تكن تخبيني . كانت
دقيقة في مواعيد رسائلها دقة البريد البريطاني . لكنني لم أجد شيئاً ذلك الصباح ، منها أو
من سواها !!

داهمني في ذلك الفجر الرمادي غم قاتل . أحسست أنني سأصاب بالحنون إذا
بقيت وحيدة في غرفتي ، وإذا لم أهرب إلى الشارع ، أركض أو أصرخ ، أو أستقل أول
طائرة إلى بيروت . وفضلت الركض .. وهربت من غرفتي إلى الشارع ، مسعورة .

كانت الساعة ما تزال السادسة صباحاً ، ولدي موعد لتسجيل حديث أدبي في
« B.B.C. » في العاشرة .. اذن أمامي أربع ساعات من الضياع .

لم يكن قد انقضى على الخامس من حزيران أكثر من شهر ، وكانت رسائل سيرة
تؤنّبني ، وتنعّتي بالجن لهربي إلى لندن بدلاً من البقاء في الوطن المهزوم ، والعمل لمحو
العار .. ربما لذلك خشيت أن تكون قد كفت عن الكتابة الي ، وحكمت على صداقتنا
بالإعدام (وكانت صداقتي بها أعمت وأغلى علاقة إنسانية ربطتني برفيقة حتى ذلك التاريخ)
كان صمتها إدانة . احتقاراً . اتهاماً . رصاصة مطلقة من بيروت إلى صدري في لندن !

قبل العاشرة بدقائق بلغت دار الاذاعة وأنا ألث مثل كلب صيد . اتجهت مباشرة نحو
الاستوديو « A 24 » حيث التسجيل . على باب الاستوديو التقيت صدفة بالفلسطينيين الأستاذين
حسن الكرمي وسعيد العيسى وكان في عيني كل منهما جنازة . سألت : ماذا بكما ؟
رد الأستاذ سعيد العيسى بصوت داعم : لا . لا شيء يهلك بالذات . تلقينا للتو من بيروت
نبأ وفاة سيرة عزام . هل تعرفينها !

(أعرفها ؟ يا إلهي ! ينعون إلي موت بعضي ، ويسألوني فيما إذا كنت أعرفها ؟
أعرفها ؟ يا شيطاني ! لها وحدها عريت وجهي وعالمي . احترمتها كفلسطينية ، عشقتها
كأديبة ومفكرة . قدستها كصديقة . ماتت !! لن أصدق . لن . لن ؟) .

كالمسعورة انطلقت أركض أركض أركض .

كل ما أذكره أنني غسلت كل شيء بتخدير ما . اختلطت الأشياء

هبطت من التاكسي أمام باب بيتي مع فجر اليوم التالي . ولاحظت أن في صندوق البريد رسالة وكانت المفاجأة المروعة !! أنها رسالة منها . من سميرة عزام . انه خطها المنمنم الذي أعرفه جيداً . لم أصدق . قلبت الرسالة وقرأت : المرسل : سميرة عزام . ص . ب : ٤٠٩٢ - بيروت !! اذن بعثت بسطورها إلي قبل وفاتها ، ورحلت حنجرتها ولم يبق إلا صرختها في مظروف ! ولم أجرؤ على فتح الرسالة . قضيت ساعات أتأملها دون أن أجرؤ !! كان هنالك شيء مروع .

لا أدري بالضبط ماهيته ! ربما وعيت بطريقة في غاية السذاجة والواقعية معنى كلمة : موت ! ..

ماتت ، أي صارت نهائياً مجهولة العنوان ! .. أن أقرأ رسالتها يعني أن ألتقي بها بعد وفاتها ، ولكن ، لمرة واحدة وأخيرة تموت بعدها ثانية !! ..

...

بيروت . يوم ما .. آب ١٩٦٨

أمام مائدة رخامية كالمشرحة وقفت تمثالاً من الملح . المفروض أن سميرة داخل هذا القبر ، لأن أمها ، السيدة الجليلة المكفنة بالسواد ، كانت تتحب مع شقيقتها غاليتي سهام .

كلتاها عاجزة عن اللقاء بسميرة ولو لمرة واحدة أخيرة . كل الناس عاجزون عن ذلك ، إلا أنا !! ..

فأنا أملك الرسالة التعويذة ولم أقرأها بعد . الرسالة .. رسالة لها مفعول استحضر الأرواح .. اذ أستطيع استحضر سميرة من عالم الموت لدقائق فقط تنتهي مع انتهائي من قراءة آخر سطر في الرسالة التعويذة ، وبعدها ستمضي ثانية إلى الأبد ، دون أن أقوى حتى على الرد أو إيصال صوتي إليها .. أن أستحضرها يعني أن أدفع الثمن غالياً لأنها ستموت ثانية .. تذكرت أكثر من أسطورة مروعة عن بشر فجعوا بموت من أحبوا وتمردوا على فكرة الموت من حيث هي فراق نهائي عن أحبائهم ، وتوسلوا إلى الآلهة كي تبذل قانون الموت ، وتسمح لهم ولو بلقاء واحد مع الراحلين ..

تذكرت مأساة أوديفوس الاغريقية ، ذلك الذي كان يطرب لغنااته الحجر والريح

والغابات والوحوش وحتى الآلهة .. والذي بكى موت حبيبته حتى رقت له الآلهة ،
وسمحت له باستعادتها وكان أن ماتت مرتين . وتذكرت الأسطورة الأوروبية .

تقول الأسطورة :

أم ثكلي فقدت أولادها الثلاثة . كان حزنها فوق طاقة البشر على الاحتمال ، وفوق
طاقة الآلهة على اللامبالاة .

لذا ، أباح لها إله الموت لقاءهم لمرة واحدة فقط طيلة عمرها ، تختار توقيتها
بنفسها . يكفي أن تحرق جلد القرد القديم الذي يضمه بيتها العتيق حتى يحضروا . وذات
ليلة غلبها شوقها فأحرقت التعويذة وحضر أبناؤها ، وغلبها ضعفها الانساني فانتحبت
وسألتهم عن أحوالهم ، وأين يعيشون ، وما هو عنوانهم ، وبكت وانتحبت ، وشيئاً
فشيئاً ، اختفوا ، مضوا بلا عودة . ماتوا أمام عينيها مرتين . مرتين !

لذا تجلدت . كتبت سر الرسالة . ضمنت أسرة سميرة إلى صدري ، وغادرنا
المقبرة ، مثل أغصان شجرة (شلعتها) العاصفة !

...

بيروت - ٨ آب ١٩٦٩

أفتقد سميرة كما لم أفعل قط . أريد أن ألتقيها الآن .

الأسطورة الاغريقية لا تحمل أي عزاء . الأسطورة الأوروبية كذلك والعربية أيضاً .
أذكرها ، فلا أجرؤ على فض الرسالة واستحضار سميرة دقائق ، ثم أدفع ثمناً (فاوستياً)
لللقاء أخير وحيد عابر تموت بعده سميرة مرة ثانية ..

في فورة جنون ركبت سيارتي وانطلقت أبحث عنها في الشوارع ، في الشواطئ ،
في الجبال ، كنت أصرخ باسمها فأسمع صوتي مثل مواء قطرة دهستها للتو عجالات قدر
مجهول ..

وقررت ..

سأقرأ الرسالة وليكن ما يكون . وبدأت أهبط من مرتفعات صنين إلى بيروت ،
وقررت أن أرتب غرفتي وأعد لسميرة السجائر التي كانت تحب ، وكأساً من مشروبها
المفضل ، وأجلس في المقعد المواجه لمقعد الفارغ وأقرأ الرسالة .

بسرعة مجنونة كنت أركض إلى اللقاء المروع المسحور . أخيراً وصلت إلى بيروت ..
في شارع المعرض حيث يتكوم على الرصيف العمال الفلسطينيون والسوريون الباحثون
عن عمل . لمحت رجلاً بدوي الوجه غارقاً في النوم على الرصيف بانتظار طلوع (الضوء)
وحضور السماسرة ولقمة العيش .

ذكرني وجهه بأسطورة بدوية عن الموت .. تقول الأسطورة (التي ربما حولها
أكثر من أديب إلى قصة) : عاد بدوي إلى خيمته فوجد زوجته تندب ابنهما الوحيد .
كادت تجن لمصرعه . تريد أن يعود بأي ثمن . قال لها زوجها بهدوء متجلد : الأمر
بسيط . اطبخي له أكلته المفضلة وعندما ينتصف البدر ، يعود ويتناول عشاءه معنا ولا
يرحل أبداً !! ..

قالت : أمذا كل شيء ؟ علينا فقط انتظار استدارة البدر ؟ رد زوجها حكيم
العشيرة : أجل ! هنالك شرط واحد بسيط ، يجب أن تطبخي له الطعام في قِدر ذات
مواصفات معينة .

— ماذا ؟ قِدر من ذهب ؟

— لا . أية قِدر صدئة ، على أن تحضرها من بيت لم يعرف أهله موت أحد أفراد
أسرتهم ، ولم يسبق أن طبخ فيها لمأتم .

وذهبت البدوية ، وطافت بخيام المضرب خيمة خيمة ، ولم تجد خيمة أو داراً إلا
وقد فقدت عزيزاً ، وطبخ في قلوبها لأكثر من مأتم .. وظلت أياماً تدور من خيمة إلى
أخرى ، وكل يروي لها مأساته ، وانتصف البدر ولم تجد قِدرأ واحدة لم يطبخ فيها لمأتم
أو بيتاً لم يفجع بعزيز ..
وفهمت البدوية .

وفهمت أنا . استطاعت الأسطورة البدوية أن تقول لي أكثر مما قالته الأسطورتان
الأوروبيتان .. اقتنعت . وأحرقت رسالة سميرة دون أن أقرأها ! .. فأنا لن أحتمل أن
تموت مرتين .

ولن أهدر وقي في قرع بيوت بيروت في ذلك الفجر الحزين بيتاً بيتاً بحثاً عن
قِدر الخلود ، الذي لم يطبخ فيها قط لمأتم ، والجدران التي لم تسمع مرة ندبة ثكلي .
تباركت حكمة البدو .. وإلى لقاء قريب جداً وطويل جداً يا سميرة ؟؟ هل تبقى
لقاء ؟؟ ..

موت القمر

ترقص أسلاك البرق . ترقص حروف المطابع : القمر لم يعد قمراً . انه كالأرض ،
مجرد أرض . أرض . طين . غبار . معادن . مستنقعات . وحل . وحل .
وترغد الآلات الحاسبة .

ترقص تجاعيد وجوه رجال السياسة : القمر قاعدة عسكرية استراتيجية جديدة .
يلقى رجال الأعمال شفاهم بعد ابتلاع أقراصهم المهدئة : القمر منجم جديد .
فحم . معادن . ذهب . ذهب .

يمسح مدراء شركات السياحة نظاراتهم : القمر ... سياحة واصطيفاف ... رحلات
منتظمة ..

يتعاقب علماء السكان : أرض جديدة ... يسقط تحديد النسل ... وليمت (مالتوس)
كدأ وقهراً ..

يركض المسؤول عن ضياع قبيلة أميركا الذرية في حقول البنلورة في أسبانيا صارخاً :
وجدتها وجدتها .. سنجري تجاربنا الذرية هناك ..

تربت سيدات الجمعيات النسائية على شعورهن المصبوغة بارتياح كبير ، فقد
انتهين من غوث أيتام وجياع الأرض ، وها هو حقل جديد ، والبركة في أيتام القمر ..

وبحك هتشكوك صلعته : فيلم رعب جديد هناك .. وتزين دار بيير كاردان
احضالاً : عرض أزياء .. في القمر ..

وتحزم الراقصات رياشهن ، وتغلق الأقفاص على حيوانات السيرك وتُعلم
الأقنعة ، ويشهد القراصنة والجياح سكاكينهم ، ويجمع رجال الدين والمبشرون كتبهم

ومنطقهم ، واللاجئون السياسيون أمجادهم ، ويهرولون في موكب هستيري إلى الفريسة هناك : القمر ...

صوت ضعيف في هذه الجوقة الكبيرة المصفقة ، أبرق محتجا .. انهم الشعراء ، أحفاد عمر الخيام ... أبرقوا احتجاجاً على اغتيال فارسهم الأبيض العتيق .. القمر .. وضحكت منهم صحف الغرب ، وضحك من جزعهم المنطق الغربي العصري .. فهو لا يستطيع أن يفهم حكايتنا مع القمر طيلة أجيال ...

أما نحن فنستطيع أن نفهم لأن لنا معه حكاية طويلة ... فقد قتل فارسنا الأبيض العتيق ... سقط نهائياً من ملكوته الأميري حيث ظل طيلة أجيال ، رمزاً لعوالم عاطفية ميتافيزيكية شرقية ثرية ..

من منا لم يكن القمر ذات يوم جزءاً كبيراً من روحانياته واثريته ورغباته الحميمية وراثته الثقافي العتيق ، وحكايا طقولاته ، ووتر شعرائه المفضل ؟ ..

ان مصرع القمر في هذا القرن دراما صغيرة سرية ، وتحمل أهم خصائص المأساة الحديثة : تصفيقنا لها ! ..

انتهى ، الفارس الأبيض العتيق .

برقية احتجاج لا تجدي .. الأمل الوحيد الذي تبقى هو أن لا نتبدل ، وأن لا نخون رموزنا ولو خانتنا ..

ذات ليلة ، لو رحلتُ إلى القمر ، وبقدمي دست الوهم الفضي الذي صار طيناً ووحلاً ، فسوف أبحث عن عريشة ياسمين كتلك التي كانت في بيتي في دمشق ، وسوف أستسلم لليل في أعماقي ، وسوف أتأمل الكوكب الآخر « الأرض » مضيئاً نائياً فضياً ، وسوف أشير إليه وأهمس بالحماس نفسه : ما أحلى هذا القمر الآخر ! ..

لن نصدق أنك لن تعودى !

قالوا : رجا * رحلت .

كيف ؟؟ ...

فجأة ، كما تحترق الشهب .

بسرعة ، كما يلتصق البرق

بهدوء ، كما ينام الأطفال .

بسلام ، كما يستسلم قديس للصلب .

...

رحلت ؟ ...

لن أصدق .

هنالك مدية انفرست بسرعة ووحشية في أحشائي ، نصلها بارد ومسّن كالمنشار .

قررت :

لن أصدق ، فأنا امرأة عاجزة عن البكاء .

...

رحلت ؟ ...

إلى أين ترحل الصبية ؟ ...

بالأمس كنا معاً ... ضحكنا معاً في باحات الجامعة الأميركية ، وتفصدا عرقاً

أمام أوراق الامتحانات ، وصفقنا ساعة خرجت رجا تحمل شهادتها الأولى وتقول

بعناد محبب : سأتابع دراستي ...

* المرحومة رجا حجار ، رفيقي بالجامعة .

بالأمس كنا معا ...

رجا الأستاذة الطالبة ...

رجا ، ابنة الشوف* رافقتني إلى الشوف لأراه .. وأعرفه .. وأكتب عنه ...

وفية لأرضها ، كان حزن زيتون أرضها ، يتجمع في عينيها ...

وفية لقومها ، كانت فجيعتها يتخلف البعض تنقل على صدرها ...

وفية لينابيع جبلها المهدورة ، كان عزمها على العمل زيفاً من الغضب تنفجر نيرانه

في شرايينها .. رجا لم تعرف أسواق التفاهة والغرور والرياء الاجتماعي .. بعيداً عن

ذلك كله عاشت ، وبعيداً عن ذلك كله رحلت ..

...

مرعب اختفاؤك رجا ... أن تموتي عبارة نرفض - نحن الذين أحبيناك - أن

نفهمها ...

ولذا بحثت عنك والرفيقات في كل مكان ... وهتفنا لك إلى الرقم المعتاد وسألنا

عنك باصرار ! .. وحينما رد صوت ملئ مفعجوع : من ؟ ... أدركنا أنك ولا بد

رحلت حقاً ..

قولي شيئاً ...

لا نستطيع أن نصدق أنك لن تعود ...

...

أحصنة معصوبة العينين نركض في سباق أرعن ... نركض ... لا ندري من نظم

السباق ...

لا نذكر من أين انطلقنا ... ولا نتساءل ... ولا ندري إلى أين ...

ثم فجأة ... يتساقط الذين أحبيناهم ورافقناهم في أكثر من شوط ... يختفون

ينسحبون من السباق الغبي ..

نذهل .. نصدق .. نرفض أن نصدق .

* الشوف : منطقة في جبل لبنان .

تنمو تحت جلدنا آلاف الأسئلة المنسية حقولاً من شوك .. لماذا ؟ .. إلى أين ؟ ..
وماذا بعد ؟ ..

لذا لما انسحبت يا رجا ،

لما اختفيت ،

كان لا مفر من أن أقف ...

أصرخ بملء فمي بصوت أخرس :

لا .

لن نتابع سباق الغباء ... نريد جواباً .

أين رجا ؟ أحقاً لن تعود ؟ ...

• • •

نموت ،

نموت مرة ، كلما أبجر بعيداً وجه أحبيناه ... بلا عودة ...

نموت مرة ،

كلما وعينا ضعفنا البشري أمام ارتحال سيكون ذات يوم ارتحالنا ..

نموت مرة ،

كلما شاهدنا حقيقة وجودنا داخل مرآة غياب إنسان كان من بعضنا ...

نموت أكثر من مرة ، بأكثر من أسلوب خلال رحلة السباق الغبي تلك ...

الذين يسبقوننا إلى الرحيل ، تراهم يشفقون علينا ؟ يرثون لحالنا ؟ لاهتمامنا

بتضاهات عمرنا الزائل ؟ لانكبابنا على أيامنا كما لو أنها لنا ؟ ..

رغم وعينا لذلك كله ..

لا نملك إلا أن نتزف حروفنا .. وترتمي كلمات العزاء في قلب الغابة السوداء

الغامضة ، مطروحة على التراب ، والريح تسكت ، وحتى النهر يكف عن التدفق ..

لا نملك إلا أن نموء حزناً ، كما تتوح أجيال من العرافات والمردة أمام قدر مبهم

عبثاً يقاوم ..

لا نملك إلا أن نسقط اعياء ، فنقصد ذلاً ، كيف لماذا وأين اخضت الصبية العذبة ..
وكيف ماتت قبل أن تعيش ؟ ..

* * *

رجا ،

قولي شيئاً بطريقة ما ...

إلى أين يرحل الذين أحبيناهم ؟ ولماذا ؟ ..

وماذا بعد ؟ ...

رجا ،

نخبرنا ،

إلى أين تسقط الشمس حينما تتجاوز أفقنا المنظور ؟ ..

قولي : أين أنت ؟

احتجاج على الموت*

أي احتجاج مرير تحمله الأسطورة ...
 في أحد البلدان ، حينما يموت رجل ما ، يدفنون زوجته معه .. وفي احتفال
 جماعي مهيب ؟ ..
 لماذا ؟ ..

للمرة الأولى تنفخ كلمة « وحشية » كجواب عفوي .. ولكن ، هنالك شيء أعمق
 من الوحشية في هذا الدفن العلني الكبير ..
 هنالك احتجاج على الموت بالذات ..

احتجاج اتخذ صورة الرفض : رفض التصديق !
 إنها محاولة لرفض تصديق ، ان هذا الرجل لما مات ، انتهى .
 هكذا بكل بساطة ، وبلا ميرر ، ودون أن يُستشار ! ..
 قبل أيام كان مثلهم جميعاً ، زوجاً ورجل أعمال ، ثم .. لا شيء .
 لأنهم يرفضون تصديق فكرة الموت كنهاية ، كعدم ، لأن في ذلك ، ما يزلزل
 أركان حياتهم كلها ، ويقودهم بالتالي إلى التساؤل : إذن لماذا نعمل ، ونخطط ،
 ونتشاجر ، ونركض خلف الشعارات ، إذا كان كل شيء سوف يتوقف ذات يوم فجأة
 دون أي تبليغ ، أو تبرير ..

وأية عدالة نستطيع أن نوجد في عالمنا ، عن طريق تشريعاتنا ، وحروبنا ، إذا كانت

* كتبت إثر موت صديق صحافي .

« الاعدالة » و « العبث » ، هما أساس وجودنا منذ البداية حتى النهاية ..

منذ البداية ، منذ لحظة الولادة ، لا نختار موعدها .. لا أحد يستطيع أن يختار العصر الذي يريد أن يعيش فيه . وأوصاف أسرته ، ولا دينه ، ولا جنسيته .. إننا نولد ، ونكتشفها فيما بعد كقلم ، وكجزء من مسلماتنا التي تتبناها الأكثرية دون أن تكلف نفسها عناء إعادة النظر .

وننطلق في السباق الكبير ، وكلما سقط انسان ، رأينا في سقوطه سقوطنا المحتوم ، وأدركنا أية « لا عدالة » تخطط ، حينما تهوي الشهب بلا مبرر ، ولا تخيير ..

هذا هو السؤال الكبير الذي لا يجرأون على مواجهته .. إنهم مع ذلك يريدون الاحتجاج ، وبطريقة بدائية جداً .. لذا فإنها تتخذ صورة عمل وحشي ، ما هو في صلبه إلا محاولة تسر جماعية ، على الضوء الكاشف المرعب ، الذي يلقيه موت إنسان ما ، على حياة الذين لم يموتوا بعد ، موضعاً لهم حقيقة وجودهم وماهيتهم وتفاهتهم ..

...

وصورة أخرى من صور رفض البشر لفكرة الموت مارسها القراعنة ..

احتجاج بدائي آخر ، اتخذ من « التمويه » تعبيراً عملياً له ، ومن الدين قناعاً ..

فقد كانوا يدفنون الميت ، في بيت ذي طابع جديد (الأهرام) ، ومعه كل حاجاته الحياتية من ثياب وأغذية وأثاث .. وهم لا يفعلون ذلك من أجل راحته وسلامه كما يظنون ، وإنما من أجل راحتهم هم وسلامهم . وما ذاك ، إلا محاولة منهم لإقناع أنفسهم بأنه لم يموت ، وإنما انتقل ليمارس حياته بصورة جديدة .. وبالتالي فالحياة ليست تافهة ، والموت ليس هناك بالمرصاد ، والعالم لا تحكمه آلهة ظالمة أو لا مبالية كما وصفها شكسبير فيما بعد : « اننا لا نغني للآلهة ، إلا ما يعنيه البعوض للأطفال العابثين :

في قتلنا رياضتهم المفضلة ! » ..

هذا كله تفجر على صفحة عيني حزمة من الألعاب النارية حينما علمت بأنه مات !
مات ! ..

لم يعد هناك ليرد على هاتفه ، أو يتلقى التهاني بانتصاره الأخير ! .. أو يقول لي :
مرحباً !

إذن سقط جواد أصيل جديد في السباق العتيق .. المعركة ..

كم سيحسها الآن كل من اشترك بها تافهة ، مجرد لعبة من جملة اللعب والسباقات التي يلعبها القدر بها عن الحقيقة المرعبة : ان يدا غامضة حملتهم كالدمى ذات يوم ، وفرضت عليهم مسرحهم ودورهم ، ولم يكادوا يكتشفون معادلة عمرهم المفروضة عليهم في تذكرة الهوية (الاسم ، العمر ، الدين ، الجنسية) ولم يكادوا يتحركون وفقاً لها ، حتى تمتد اليد الغامضة ثانية لتلتقطهم عن المسرح ، وتمضي بهم إلى حيث لا يدرون ، بلا مبرر .. بلا إنذار ..

أي عبث هي الحياة ، أية تافهة .

وأي انتصار ، أن نعرف هذا كله ، ونتحدى ، ونتابع اللعبة ! ..

أي انتصار ..

أن نعمل ، رغم أننا نعرف سلفاً أننا مهزومون في جبهة الموت المجهولة ، التي لم يعد منها أحد ، ليخبرنا عما يدور هناك .

وحق سيزيف الأسطورة ، الذي أصر على أن يعرف ، حل عليه العقاب لأنه تمرد .

* * *

إذن مات ..

وكما تتوهج الشهب الساقطة في إضاءتها الأخيرة ، نرى في توهجه الأخير حقيقة ومعنى وجودنا ..

وندرك أية مأساة يفجرها موت أخ كفاح في هذا العصر .. فنحن اليوم لا نملك إلا أن ندرك معنى ذلك ..

لقد فقدنا القدرة على التمويه النفسي ، وفقدنا القدرة على « رفض التصديق » البدائي ، وفقدنا القدرة على تعظيم أنفسنا انطلاقاً من انتصاراتنا العلمية ، فكل صاروخ نطلقه إلى الفضاء ، ليس دليلاً على عظمتنا ، بقدر ما هو دليل على صغرنا وتفاهة شأننا في هذا الوجود الكبير والكون الكبير المرعب باتساعه وضخامته ... والذي يكشف لنا العلم مدى ضآلتنا فيه .

البدائي سعيد ، إنه يعتقد أن الجبل إلى يمينه هو أول الدنيا ، والجبل الآخر إلى يساره هو آخرها ، وما فوقه من نجوم وكواكب هم أربابه ، وقوى الطبيعة بعضها شرير وبعضها خير ، وفقاً لانتفاعه منها .. وهذا كل شيء ..

وإنسان العصر مفعجوع معقد ، حضارته المادية تكشف له مدى يؤسه الروحي ، بعد أن فقد الإيمان ولم يجد البديل ..

إذن مات !

أي عار ،

أن يجد أحدنا القدرة على التخدير أو التملويه ، هارباً بذلك من مواجهة الحقيقة التي يحملها موته : تفاهة الحياة ..

وأي انتصار ..

أن ندرك هذا كله ، ونتحدى رغم ذلك ، ونتابع اللعبة محافظين على قيمنا ، لأنها تنبع من داخلنا نحن ، لا من قوى خارجة عنا فقدنا إيماننا بوجودها ..

وأية فجيرة ..

أن يكون الأمر كله هكذا !! .. ولا شيء ..

نموت ، احدى ميتاتنا

الانسان المحتضر يكون على الأرجح قد فقد من
ذاته خلال حياته ، أكثر مما هو مقدم على
فقدانه بالموت ...

— نيتشه —

الموت يهمس باستمرار في أذني : عيش* ، فأنا
في طريقي إليك .

— سير أوليفر هولز —

حينما تتصالح مع الموت ، وتتقبل فكرة موتك
الشخصي ، تصبح حراً لتجيا . تكف عن المبالاة
بسمعتك ، وما يقوله الناس عنك ، ولا تبالي
بغير الحياة من أجل يقين تؤمن به .

— سول ألنسكي —

قلوبنا الخائفة ما هي إلا طبول تفرع أنشودة
الموت ونحن في طريقنا إلى قبورنا .

— هنري وادسورث لونفيلو —

بعد أن احترق حقل الزيتون !

ربما لأن الليلة مطر . تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقتي ..
ربما لأن الباخرة العالقة بين الصخور منذ أسابيع ، تفرق الآن وحيدة .. ربما لأنني
لما شاهدت صباحاً واجهة مخزن الألعاب ، وقد عُرِضَتْ فيها عشرات الأقنعة الملونة ،
أحسست بالخوف وأنا أحاول أن أتذكر أين رأيتها ، وكيف .. ثم تذكرت كيف ،
وأين ، وأنا أتأمل الوجوه حولي في الصف بالجامة والمقهى والشارع طيلة بقية النهار ..
وفي المساء ، أحسست بأقنعة واجهة مخزن الألعاب تهاجمني ، تندفق من بطاقة دعوة
لإحدى الحفلات ... إذن يقيمون حفلة .. ورأيت الأقنعة تفهقه ، تصرخ ، تشرب
الويسكي ، ثرثر ، تتغامز ، تنفث دخان السجائر في وجهي من حروف البطاقة ، ثم
تتهامس وتلتصق وتلتصق حتى تصبح قناعاً واحداً كبيراً لا يعرف الحنان . ولم أذهب إلى
الحفل ، لكنني ذهبت إلى واجهة مخزن الأقنعة ، في الأضواء الشاحبة ، كانت تبدو
رصينة وصامتة ، وخلف عيونها المقموعة تلتنع أحداق فيها ما يشبه الحنان .

...

ربما لأنني لما أرعدت ، أدركت كم أنا وحيدة .. تحولت إلى يدٍ صغيرة باردة
على منضدة في مقهى مقفر ، والكرسي الثاني فيها مقفر .. ولما انزلت قدمي في المطر لم
أمدّ يدي لأستند إلى جدار أحد الأبنية ، فقد لاحظت أن الأبنية كلها رسوم زيتية على
ستارة قماش ، (يكشفها) اهتزازها في الريح ووهج البرق . والشوارع ظلال في برك
الوحل ، ممزقة ومبتلة ، وغير حقيقية ..

ربما لأنها كانت ما تزال تمطر .

تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقتي وأنا أقرأ هذه الكلمات
لشكسبير : « الآلهة تقتلنا بينما هي تمارس رياضتها » .. وتتوتر عشرات حكايا الاغتيال ،

تنقر كالمتقرب ، أنحس نبضي . تنقر كالمتقرب .. وأشم رائحة العفونة تفوح من أوراق ،
وأخشى أن أنظر في المرأة كي لا أرى اللود الذي بدأ يأكلني ..

فأنا ميتة ما دمت وحيدة وهي ترعد ..

...

ربما ...

ربما لهذا كله ، أجدني أنسل هاربة من صفحتي المعتادة ، لأركض في شوارع
المجلة بحثاً عن سفارتها الحرة* ، لأحتلها ، لأرمي بمصنفاتي من (سطوحها) إلى الأرض ،
ولأكسر هدوء القضاة في كلماتي ، وأرفع صرة (ربما زوادة سمر) على مظلة ممزقة
راية لأرضي ، ثم أغلق النوافذ ، ثم أرسم على أحد الجدران نافذة ، أقف أمامها وأغلق
فمي ، وأصرخ .. وأصرخ .. أو أقهقه .. أو أن .. أو ألصق وجهي بالجدار ولا أقول ..
ثم أفرغ الحبر من قلمي تماماً ، وأنظف ريشته تماماً ، ثم أبحث عن ورق ، لا فرق إن كان
قد كتب عليه من قبل أم لا ، وبالقلم الفارغ من أي حبر أكتب وأكتب ، وأبحث عن
أسطوانة أضع الإبرة على الخط الأخير فيها . فلا أسمع سوى (تكة) النهاية ، وأتركها
هناك ، رتيبة مستمرة تشبه صوت إبرة وحشية تثقب رأساً ما .. فالباحرة الآن بين
الصخور تفرق في الظلام ، وصاريها ما زال مرفوعاً .. جاءت إلى بيروت وكانت ما تزال
قادرة على أن تحلم ، طويلاً حلمت بالمدن العجيبة المدفونة منذ عصور في الأعماق ،
بالميناء حيث تشف المياه كزجاج مصهور . ويصبح الرحيل نفوذاً مستمراً إلى داخل
الأشياء وصلبها .

...

ثلاثة أسابيع ، لا عمل لأهل بيروت إلا الوقوف على شاطئ البحر ، ومراقبة
السفينة المحطمة بين الصخور ، تفرق وتفرق ، دون أن يملك لها أحد شيئاً ..

ثلاثة أسابيع ، واحتضار الباحرة تسليتهم المفضلة ، يرقبونها بلدة أهل روما القدماء
أمام مشهد التهام الوحوش لأبرياء رموا بهم إليها ..

• «السفارة الحرة» صفحة بالمجلة التي كنت أعمل فيها يومئذ وتتضمن «الخواطر الحرة» للمحررين .

الليلة ، ربما تموت الليلة بعيداً عن الأعين ، ربما هي الآن تتزف ومياه البحر حولها
حمرء دامية .. وبعد أن تفرق ، ربما سيظل جزء ولو صغير جداً من صاريها فوق الماء ،
وغير منكس .

...

إذن فهي تمطر ..

لكن حقل الزيتون الذي جف قد جف ..

لم يبق إلا جذوع عارية كأصابع كف محروقة تشير إلى أصقاع مجهولة ..

إذن فهي تمطر ! .. أية سخرية ما دام الحقل قد انتهى ! .

ماذا لو أمطرت حناناً أو دفئاً أو صقيعاً أو سجيلاً ما دام الزيتون قد احترق وفات
الأوان ..

لا أدري ماذا أقول .. ربما لأن الليلة مطر .. تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي
ولحمي ، تمطر في حلقي .. ربما لأن الباخرة تفرق ... ربما لأن حقل الزيتون قد
احترق ..

...

في الزحام .. لا أحد

أنا الليلة لا أملك « كلمة بيضاء » * واحدة ...
في حلقي ملايين الصرخات الرمادية .
على لساني حقل أشواك رمادية .
على صفحة عيني ، يتزلق شريط أحداث طويل غائم خلف أمطار رمادية ..
وحينما يتزلق ذلك الشريط ، يصبح الدم الذي يجري في عروني رمادياً ، والهواء
بعد أن أنفثه من رئتي دخان ثقيل ...
لذا فالخبر في محبرتي الليلة رمادي : بقايا نيران : كانت قبل أن تستحيل هشيماً ،
أنشودة شرر وعنفوان التهاب .
« كلماتي البيضاء » * ككل شيء أبيض ، ليست مجرد لون واحد كالأخضر أو
الأصفر أو الرمادي ، لأن الأبيض حصيلة انصهار الألوان كلها ... وكلماتي تلك ،
حصيلة استجابتي وانفتاحي على كل ما حولي ومن حولي ...
أما الليلة ، فأنا وحيدة مع ذاتي ، وكلماتي ستكون رمادية ... لا أحد يعنيه أمرها
إلا إذا كان طبيباً نفسياً ، أو مروج شائعات أو دفتر مذكرات .. أو وحيداً مثلي ..
أنا في لحظة صدق ... فأنا أكره الأقنعة : أمزقها حتى ولو كنت لا أملك تحتها
وجهاً ! ...

قلمي المشحون بحبره الرمادي ، سأسلمه للجرحي : ليهندي ، ويهذي ...

...

* كنت يومئذ أكتب في المجلة نفسها عموداً أسبوعياً بعنوان « كلمات بيضاء » .

الليلة ...

أنا وحيدة ، ولا أرى سواي .
وحيثما لا أرى سواي ، أراك أنت ، وحدك ، وبوضوح .

...

خنجر مدفون في لحم ذكرياتي أنت .

...

لست آسفة ، لشبكة الدم المتجمد على جسد الحكاية الجريح ...
تباركت الريح التي عصفت بالحقل الكبير ...

...

كما علمتني ، أقول :

شيء واحد ،

شيء واحد يجعلني أظل أعدو بالمشعل ..

هو أن الأيدي التي ترميني بالحصى والشوك خلال عدوي ،

هي نفسها التي تصافحني مهتة بعد كل جولة ، حينما أصل دون أن أسقط ! ..

...

كما علمتني أقول :

الإبداع جرح لم يسممه الحقد !

...

لما انتحبتك في صدري ، لما امتصصتُك ظل وثن ، لما ارتحلتُ على أصداء كلماتك
الأخيرة الحزينة ، لما تفصده الدم الرمادي من مسامي ، بدا القاع مغرباً ، ونداءه وحده
يحمل السكينة والانطواء ...

وبالحاسة التي تجعل الفيلة تدرك من تلقاء نفسها أنها ستموت قريباً ، فتتجه إلى مقبرة
خاصة ، حيث كل يتولى دفن نفسه ، بالحاسة نفسها بدأت أحفر في الرمل بسرعة ..
لكنني لما رأيت الأيدي (الصديقة) تتراحم حولي بالرفوش ، لتمد إليّ يد المساعدة بإهالة
التراب فوقني ، حملت الراية من جديد ...

كما علمتني قلت : كلما حفرتم لي قبراً اتخذته أساماً لبناء قلعة .

لأنني منحطك كالأطفال : كل شيء ، فأنا ما زلت أملك الكثير ...

عدت إلى الزحام

« في الزحام لا أحد » ...

رمحك ساعة انغرس بكى . كان كعينك بريئاً ونبيلاً . لم يدرك . لم يدرك .

صفاء صخرة مبتلة مجرحة بعد عاصفة المطر والرعد والصواعق .

حزن صخرة أحبت ذلك الزلزال .

صفاء . حزن . الحبر في عروقي رمادي ، والدم في محبرتي رمادي ،

وعينك ، أذكر أنني قلت لك مرة في لحظة مباركة : أحبهما هكذا ، رماديتين .

ماذا أكتب !

ماذا أكتب ؟ (١) ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع .. ستة أسابيع ، والسؤال خطي عساكر تراوح في مكانها فوق رأسي ..

ماذا أكتب ؟ ..

ماذا أقول للناس هذا الأسبوع ، حينما أفتح نافلتي في هذه الصفحة ، وأطل منها عليهم ؟ ..

لا أدري لماذا ، ربما للمرة الأولى ، عجزت عن تجاهل أمر طالما عرفته ولم أبال به . لأنني لم أشعر قبل الآن بأنه يعني سلباً أو إيجاباً ..

إنه ربط الناس ربطاً حرفياً سطحياً بين حياة الكاتب الشخصية ، وبين نتاجه ، وتركيزهم الشديد على هذه النقطة ، إذا تصادف أن كان الكاتب (كاتباً) ، بحيث يقرأون نتاجها وكأنهم يقرأون مذكراتها ، وخلسة ١١ ..

هذه الناحية ، لم أعرها قط أي اهتمام حينما كنت أفتح نافلتي لأقول : كنت دوماً أصرخ في الأظافر المشهورة في بؤبؤ عيني ، وبملء فمي ، وبصدق ، ودون أن أتساءل : ماذا سيقولون ؟ وكم عدد رسائل الشتائم التي قد تنهال ، وتعرض نماذج منها في (متحف) بريد القراء .. أو كم عدد الأكف التي قد نضيت أصابعها تصفيقاً ؟ ..

ولم يكن تجاهلي هذا استهتاراً ، وإنما رفضاً لأسلوب في التفكير اعتبره خاطئاً ، وأعتقد أن في مجرد مراعاتي له ، إقراراً به .

(١) كتبت ، بعد إعلان خطبتي بشهر صمت خلاله عن الكتابة .

ولكنني هذه المرة ، فوجئت بنفسى أتساءل : « ماذا سيقولون » إلى جانب تساؤلي :
ماذا سأكتب ! ..

لماذا ؟ ..

ربما هو احساس جديد بمسؤولية إضافية : بإنسان آخر هو معي — بطريقة غير
مباشرة — ودوماً ، وحتى حينما أفتح النافذة لأقول ، ولأتلقى حصاد صدقي ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع ..

ماذا أكتب للناس ؟ ..

لو نشرت قصة عاطفية ، أية قصة ، ولو من أرشيفي القديم ، لقالوا : إذن هذه
هي قصة الخطبة ! .. ولتبدلت أسماء أبطالها في أذهانهم إلى اسمي واسم خطيبي .

ولو نشرت قصة ، واستغنيت فيها عن البطل ، قصة راهبة مثلاً ، أو امرأة وحيدة
في جزيرة على طريقة (روبنسن كروزو) لقالوا : إذن ما زالت حزينه ووحيدة ، وبلا
بطل ! .. ها هي تخون خطيبها مع « الغربة » ! ..

إذن نتخلي عن فكرة أية قصة عاطفية ..

قصة بوليسية ؟ .. سيقولون : لقد دخلت منذ الآن في جو الزواج الارهابي ..

قصة فكاهية ؟ سيقولون : أما قلنا لكم إن (مشاكل الوجود) التي تطرحها الكاتبات
ليست سوى تصوير مضخم لمشكلتهن في البحث عن زوج ؟ .. ها هي قد نسيت أحزان
« بيروت التي لا بحر فيها » واستحالت الفجعة الإنسانية في « ليل الغرباء » إلى مسرح تهريجي
ضاحك ! .. يا للسطحية والزيف ..

فلأصرف النظر عن نشر قصة ..

ولكن ، سيقولون فقدت موهبتها إثر هذا الحادث المؤسف ! .. الخطبة ! ..

فلأكتب قصة على طريقة كليله ودمنة ، وليكن أبطالها من الحيوانات . سيقولون :
قصة رمزية ... شيفرة سرية .. لمن ؟ .. لماذا ؟ ..

فلتكن قصة للأطفال ..

سيقولون : الأثني تنتصر ، وها هي منذ الآن تعد القصص لأطفالها ! فلأكتب

قصة وطنية ١١ .. يقولون : هذا « الخافق المذهب » وبدأت مسرحية القضايا العامة ..

فلأكتب مقالة .. مقالة اجتماعية مثلاً . يقولون : بدأت تمهد للانضمام إلى « الجمعيات الخيرية » والتجمعات النسائية لعرض الأزياء تحت اسم « اللجان التنظيمية » لجمعيات مثل « جراب الحاوي » تصلح لجميع المناسبات ما دامت تتيح علناً اجتماعياً « فخرياً » للتملص من الزوج المسكين .

ماذا أنشر إذن ؟ مسرحية من اللامعقول « كالطوفان » ؟ .. يقولون : لقد دخلت سريعاً في مرحلة الهديان ، وداخت بين واجباتها في مختلف غرف البيت الذي لما تسكنه بعد ! .

ماذا أنشر إذن ؟ ..

وتذكرت حكاية قديمة ..

فلاح ركب حماره متجهاً إلى السوق ، بينما سار ابنه الصغير إلى جانبه .. مر به الناس فقالوا : « أية قسوة ! يترك ابنه المسكين يسير بينما يستأثر هو بالحمار » ؟ ففز من الحمار وأركب ابنه . مرت به مجموعة أخرى من الناس فسمع همساتهم : « ما هذا الابن العاق .. يترك أباه الشيخ يمشي ، ويسترخي هو على الحمار !! » .. فما كان من الفلاح إلا أن قفز هو أيضاً على ظهر الحمار الذي سار بهما بخطى بطيئة . قال الناس : « لقد فرغ القلب البشري من الرحمة بالحيوانات .. هذا الحمار المسكين سيموت احياناً لتقلهما » ..

وهنا هبط الفلاح عن الحمار ، وأنزل ابنه وتعاونوا على حمل الحمار ، إرضاء لجمعية الرفق بالحيوان . ومر بهما الناس فانفجروا ضاحكين هازئين : « انظروا إلى جارتنا المسكين .. لقد أصيب بالجنون » .

فأنزل الحمار عن كتفه ، وسار ثلاثتهم جنباً إلى جنب . لم يبق أمامه إلا هذا الحل . ومع ذلك ، سمع الناس يقولون : لماذا اشترى الحمار إذا كان (سيماشيه) كأنه صديق قديم أو فرد من الأسرة ؟؟ ..

ماذا أكتب ؟ ..

سأكتفي بتجربة الفلاح ، ولن أستشير أحداً . ولن أخاف الأصوات الراضية لي ،
ولن أماشي الأكف المؤيدة التي تضيء أصابعها تصفيقاً ..

وسأكتب حقيقتي وصدقتي كما فعلت دائماً ... وليكن ما يكون * 11 ...

• كان أن فُسخت الخطبة 11 ...

كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق...

أنظر ، كل الطرق التي كنت تسلكها انغلقت .
ما عدت تعطى حتى المهلة
لتمضي ولو تأثماً . الأرض التي تتواري .
وقع خطواتك التي لا تتقدم
لماذا تركت العوسج يغطي
صمتاً عالياً جثت إليه ؟
النار تحمي صحراء في حديقة الذاكرة
وأنت ، يا ظلاً في العتمة ، أين أنت : من أنت ؟
أنت وحيد الآن رغم هذه النجوم .
المحور قريب منك وبعيد عنك .
مشيت ، يسعدك أن تمشي ، ولن يتغير شيء
دائماً الليل نفسه ، الليل الذي لا ينتهي .
وانظر ، انفصلت عن ذاتك .
دائماً هذه الصرخة نفسها ، لكنك لا تسمعها
أأنت الذي يموت ، أنت يا من فقدته القلق
أثراك ضعت ، أنت يا من لا يبحث ؟

- إيف بولفوا -

ستنشد المدينة من أجلي !

وجودي زيفته حتى أضعته وما دريت .. غزلت ليالي طويلة من تبعية واستسلام
ما أدركت ... حتى تفجرت النجمة بين أهداي فانقلت بين استنكار القطيع ودهشته ،
أدوس اكليل الخوف ، وأبحث عن وجودي ، لأتحدى الوجود كله بوجودي .. لو
وجدته !! .. أبحث عنه لأعجده بأن أعريه وأبارك صدقه .. من وجد نجمة ، لا يسجد
لآلهة التمر .. يرفض بركة التبغ والكافيار ..

ويثور في أعماقي حزن ملتحاف جاف .. أحس إحساساً مفاجئاً بأنه كانت هناك أشياء لم
أبك من أجلها بما يكفي .. أشياء ما زالت غارقة في أعماق أعماق رفضي وعنادي
ورواسي .. وانها ستظل أبداً خفية دفية .. يارعب المقابر يوم تنفر أفواهها لتكشف عما
بداخلها .. يا خوف نفسي مما بنفسي .. يا نجمة تضيء .. تتوكل على قلم .. تهل في مهرجان
السطور ..

لأن الخوف انحسر ، عدت أبحث عن وجودي من أجلك .. وأنا لم أعد أخشى
شيئاً . وأنا كاهنة الخريف .. أطوي أحزاني وأبخل بصدقي .. وأنا متعبة ، كلما بحثت
عن نفسي اصطدمت بشتاء الصمت .. ضاعت يداي في صقيع الصمت .. لم يعد للشفاه
همس .. لم يعد لصخب المدينة صوت .. لا أسمع حفيف أنفاس أي انسان .. الطيور
والكنائس وشفاه الأطفال خرس جامدة .. الصمت احتل المدينة .. انسكب من
مداخلها وشرقاتها .. الصمت .. وحشرات بحر خرست أمواجه الصمت .. لم تعد
زرقة السماء تزغرد ..

وأهرب ...

بين أكاداس من الأسطوانات أدفن وحشتي وقلقي .. إلى عالم الموسيقى أهرب من
حسراتي ونزقي وهفتي .. أستسلم لزبد اللحن يغمر وجهي في ثرائه .. أستسلم لموجاته

تبعثني موجة فضية في الشاطئ « الأسود .. أستسلم لدواماته تحتويني .. تُفجّرني في أغوارها
اللاهبة ، غجرية مجنونة الرقص وحشية الانفلات .. تلصقني لؤلؤة وادعة بخد صدقة
عذراء .. أستسلم للحن يغسلني .. يحرّري .. يشحني بالثورة ، بالحنين ، بالإصرار
بعناد العناد .. المدينة ما زالت خرساء لكن مدينة جديدة تولد في دوامة اللحن .. المدينة
التي أحب وأريد .. عدت أهرب من جديد إلى نشوة الحلم وخيبة الحلم .. يا مدينتي
الخرساء : سيول الأحزان تتجمع .. تسيل من عيني دمعة .. دمعة واحدة من عين
واحدة . عيني الأخرى جافة . حادث كبير في حياة امرأة لا تبكي أن تسقط من عينها
دمعة ..

وبصمت اللحن .. وترقد النجمة بين أهدائي وادعة .. نجمتي التي تستند إلى قلم ،
وتشرّد في مهرجان السطور ..

وأهدأ .. وجدت دربي الحديد ونفضت اكليل الخوف .. الصمت ؟ من يبالي ..

يوم أجد نفسي وانتمائي الحقيقي وحلفائي ورفاقي أكون قد وصلت .. وستشهد
المدينة من أجلي .

أنا دمية الساحرة الشريرة

الدمية السوداء معلقة في المذبح .. انها تمثال الساحرة الشريرة ، التي يكرهون جميعاً
شروها .. خيط رفيع يشدها إلى السقف .. تتأرجح في سحابة من بخور ونهاويل ..
تنوس كلما غرس فيها رجل دبوساً أحضره خصيصاً لذلك ، وهو يهتف بحماسة جوفاء :
مت أيها الحقْد .. رجل آخر يسدد دبوسه إلى عين الساحرة ويصرخ : مُتْ أيها الحسد ،
مُتْ أيها الكذب ، مُتْ أيها الرياء .

عشرات الدبايس تنغرس ... عشرات الشتائم تنهمر .. موتي أيتها الانتهازية .
أيتها الدبلوماسية الصفراء ..

دمية الساحرة السوداء لا تشكو .. يغيظهم ألا تعول وتنتحب .. تهوي إلى الأرض ..
تتناثر .. البدائيون يرقصون فوق الحطام .. يدورون وفي أعينهم فرحة مزيفة بلهاء ..
يحتفلون في لهاثهم المحموم بموت آثام الوجود .. وفي أفق ما .. يقهقه شيطان بسخرية
وفخر ..

...

شمس اليوم التالي تتسلل بفضول إلى القرية ، وفي أهدابها الشقر حلم بيوم طيب ،
بعد أن خبرها الليل بأن البدائيين قد قتلوا الشر ... ولكنها في المساء فلملم أهدابها
بانكسار ، زاحفة إلى مغاورها الرمادية .. فقد رأت أن الرجال ما زالوا يُقتلون من أجل
اللاشيء .. ورأت أن العاشق الطيب يشتم امرأة لأنها لم تبادله الحب .. ورأت صديقاً
يتخلى عن صديقه ، لأنه ظنه بحاجة إليه .. ورأت أن حفار القبور ، قد اتفق مع الطبيب
على التآزر والاتحاد ... ورأت أن زوجة الحارس الذي سرق من أجلها في الفجر ، قد
هجرت إلى عشيقها في المساء .. ورأت الأطفال يحصبون فتاة تحترم عدوها ، لأنه لم يحاربها
من وراء قناع ..

الشمس دهشت .. دمية الساحرة الشريرة حطموها .. من أين أتى الشر؟ وفي أفق ما
كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر ..

وفي المساء عادوا إلى حلقته من جديد في (يوتوبيا) زجاجية الجدران يسمونها
« المقهى » .. تمثال الساحرة الشريرة ينوس في الوسط .. يأكلون بعضاً من لحم نيء ، ثم
ينهضون والدم يسبح من أفواههم ليرقصوا ويعربدوا حول تمثال الساحرة الشريرة ..
ليجتمع الناس .. إنهم يقتلون الشر لينفخ في الأبواق .. إنهم يقتلون الشر .. تمثال
الساحرة تهاوى .. مات الشر ..

وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر .

ملايين الدمى ظلت تهوي منذ عصور وعصور .. بدأوا بالساحرة في ثيابها السود
ومكنستها الأسطورية .. أحرقوا جان دارك .. مزقوا ليلي الأخيلية . سحلوا في القرية
ألف امرأة قالت : لا .. وألف امرأة قالت : نعم .. وألف امرأة لم تقل شيئاً ..

وفي عصر الصاروخ والتطور ، حافظوا على التقليد البدائي نفسه .. لم يقدموا للإنسانية
أسلوباً جديداً لقتل الشر تغطي به ..

دمية الساحرة الشريرة كثيفة وهادئة .. تموت ونحيا بصمت ... تشفق أحياناً عليهم
لأنها تعرف أنهم يخدعون أنفسهم .. مرة التقت نظراتها الحزينة بنظرات إنسان طيب
أزرق العينين مد دبوسه الكبير ليغرسه في صدرها ويهتف : لثمت أكاذيب الأصدقاء ..
وكان في عينيها حنان لا حقد .. وكان في عينيها تجلد إنساني ممزق ..

توهجت لحظة صدق وصفاء أمامه .. نار المعرفة والفهم اشتعلت بين يديه .. انطلق
هارباً وهو ينتحب ويقول : مسكين (بروميثيوس) ... كم تعذب !! ..

وقالوا في (اليوتوبيا) زجاجية الجدران انه جن ! .. احتجب أياماً عن البدائيين ..
رأوه يسير مع الساحرة الشريرة .. صلوا من أجله كي يشفى .. رفعوا القرايين لإله
الكذب والفساد كي يشفى .. واحتفلوا يوم عاد إليهم فنفخوا في الأبواق وابتاعوا دبابيس

جديدة .. دمية الساحرة ظلت هادئة وصامتة وكثيية .. وفي أفق ما كان شيطان يقهقه
بسخرية وفخر .. !

* * *

لماذا لا نهذا قليلاً .. ونقولها كلمة صريحة .. منذ عرفنا الشر ونحن نمزق دمية الساحرة،
فهل مات الحق، والغدر بالذين وهبناهم الكثير من نفوسنا .. أو القليل الصادق ؟ ..
لماذا لا نهذا قليلاً ونقول اننا بلا ريب قد أخطأنا الساحرة ؟ .. واننا ما زلنا بدائيين ..
واننا ننسب للآخرين صفاتنا التي نكرها في أنفسنا .. وأن دمية الساحرة ليست إلا
الظلال التي ترميها أعماقنا على الأشياء .

لماذا لا نلتفت إلى أنفسنا ؟ ..

قليلاً من الصدق .. قليلاً من التواضع .. ثم يغرس كل منا دبوسه في أعماقه ..
في أعماقه ..

لا شيء سوى قطع فسيفساء !

حياتنا مجموعة أشياء صغيرة وصغيرة جداً .. قطع من الحصى يرصها القدر الذي نصنعه ، والذي لا نصنعه ، فاذا وجودنا لوحة من الفسيفساء في ركن معبد مهجور ، يلعبها الليل ويغزوها الغبار .. لوحة من الفسيفساء في تقطع حصاها وحدة ، وفي تباينها انسجام .. تذهلنا هذه الحقيقة يوم نكتشفها ، لأنها لا تتفق وأحلامنا المثالية ، التي كنا قد حملناها قبل أن نمارس الحياة العملية ..

منذ أعوام كنا ندب في درب الطفولة ، وننتقل من مرحلة دراسية إلى مرحلة ، ونحلم باليوم الذي ندخل الحياة العملية فيه ، فنصل إلى المعبد لرسم على الجدار الذي ينتظرنا لوحة وجودنا .. وكنا لا نعرف إلا أننا وجدنا أنفسنا في أول الدرب ، وأن علينا أن نسير ونسير إلى حيث يوجد المعبد .. وأن علينا أن نتزود من هذه المرحلة (بشهادة دراسية) وحلم وأغنية ، تساعدنا على انتقاء ألوان لوحة وجودنا .. وكنا نتجاهل مئات الأمثلة التي تفرض نفسها علينا : « من أين جئت ؟ » ... « إلى أين أمضي ؟ » « لماذا أرسم اللوحة ؟ » وكنا نهرب من رعب السؤال إلى رعب الصمت ، ومن رعب الصمت إلى عالم الحلم .. فنحلم .. نحلم بريشة الرسم الفاخرة والدهانات الثمينة بألوانها المبهجة العرييدة ، ونحلم بصخور شفاقة ننحت منها إطاراً للوحة ، ونحلم بأننا سنصطاد شمساً ندقها في إحدى زواياها .. ونحلم .. ونحلم ...

...

ويوم دخلنا الحياة العملية ساعة وصلنا إلى المعبد ، اكتشفنا أنه غول رمادي الهرم .. وأن إطار اللوحة الموعودة حشائش بحرية لزجة .. وتصبقتنا الحية اذ لا شمس في المعبد .. لا ريشة .. لا صخرة زجاج .. ونندرك فجأة أن كل ما كنا قد حملنا به ، كان أبخرة وهم عقيمة لا تمطر .. من منا ينسى خيبته يوم استلم عمله الأول ، واكتشف أن له

منضدة حديدية باردة وخزانة حبل (بالمصنفات) وعجرة كأي (مقموع) ؟ .. وهو الذي لم تقنع أحلامه خزائن بابل وعروش فارس !! ...

ونحمد . تذبل أهدابنا . الحية قاسية ، ونحن أمام منظر لم نكن نتوقعه .. فتنكب على دروسنا وكتبنا وتقاليدنا .. ننبش الحروف بحثاً عن إيضاح .. نعصرها .. نسحقها بحثاً عن كلمة عذراء لم تلمسها شفة قلم .. لا شيء سوى رعب الصمت .. لا شيء سوى قطع فسيفساء تغرسها العاصفة في اللوحة .. ونضيق في الإعصار .. الأسئلة التي كنا نغطيها بيزيد أحلامنا ، تنتصب من جديد عارية القسوة وخازة .. رعب الرعب في صحارى اللاجدوى هو الجواب .. وندرك أنه ذات ليلة ستتقضم من كوة المعبد عاصفة بنفسجية تصلبنا فوق اللوحة بمسامير من شوك ، وحينئذ فقط تكتمل لوحة وجودنا ..

ونروح نهمل أشياءنا الصغيرة ، وتغمرنا الآلام والمتاعب ، ولا ندري لماذا .. فنحن في غمرة قلقنا وخوفنا ، ونحيينا على حلم شبابنا الممزق ، نتجاوز أشياء كثيرة صغيرة هي في الواقع وجودنا الذي نملك .. بسمة صديق .. كلمة طيبة .. ثانية تفاهم ووقاء تتجاوز الأبعاد الزمنية وتخلق في ثانية دهوراً من سعادة واطمئنان .. ولو دققنا النظر في حياتنا لدهشنا .. لو حاولنا أن نكشف عن العلة التي تقف وراء أهم أحداثها وتقلباتها لوجدنا أنها أشياء صغيرة ... فسيفساء ..

أنت ، وأنت تسير ، قد تلتقي بعينين تشدانك وراءهما العمر بأكمله .. وأنت تتبعهما مستسلماً ، كأنك لم تمض عشرات الأعوام تقرر كيف يجب أن تكون شريكة حياتك ، وترسم لها وتخطط ... ذبابة واحدة تقف على أنف شرطي السير وتضطره إلى رفع يده وطردها قد تسبب صداماً مريعاً ، وتسبب وقوف سيل من السيارات وربما موت مريض ما ينتزف في إحدى السيارات ... مجرد حركة يد .. فسيفساء ..

أنا كدت أقتل اثنين من أطيب وأعز الناس بحركة يد خاطئة .. كان هنالك مصعد أسرع إلى .. أهملت النظر إلى شارته الضوئية قبل أن أفتح بابه لأتحقق مما إذا كان قد بدأ هبوطه أم لا .. والذي حدث أن المصعد كان قد بدأ هبوطه ، وأنه توقف في نصف الطريق إلى الطابق الذي يليه ساعة فتحت الباب ! .. وهذه حالة نادرة ، ولكنها تقع ! .. وأطلقت من الباب المفتوح على خوف إنسانين سجينين في قعر البئر . لم يحتاج بكلمة .

وابتسمت ببلاهة .. واعتذرت وأنا أشعر بالكلمات مضحكة بليدة وبالاعتذار أسخف
اختراعات المجتمع .. فقد كنت بحاجة إلى أن أبكي .. يد أحدهما كانت مدفوعة بين
أربطة بيض بسبب جرح سابق أسفت فعلاً يوم أصيب به .. ومع ذلك كدت أقتلهما
أنا التي أحتاج إلى دهور من حقد قبل أن ينظر لي شتم انسان .. وأنا التي حلمت بريشة
البراعة ترسم الشق الأكبر من لوحة وجودي .. لا شيء في اللوحة سوى فسيفساء ..
بطرف أصبعي كدت أهيل عليهما كتلاً من الأربطة البيض فتغمر الملامح الهادئة والوجه
الطيب ... وأظل أدور في المعبد هلعاً من أن تهوي صخرة تسحق قدمي فأنسى الحصى
الذي يدميهما والذي يمزقها كما لم تفعل صخرة .

لماذا لا نقنع ونقنع بأن قدرنا فسيفساء ؟ قد لا تكون قطعته مصقولة ولا منتظمة
الحواشي .. حسبنا أنها حقيقية ! ..

لماذا لا نبدأ من جديد ، نتوقف عن رفض الأشياء التي كنا نظنها تافهة ، ونحاول أن
نصنع منها شيئاً ثميناً ولو كان صغيراً ، عميقاً ولو كان محدود الاتساع ؟ ...

لماذا لا نبدأ منذ الآن .. فيستحيل فسيفساء لوحة وجودنا شيئاً مذهش الأبعاد ..
وإذا بكل فيروزة فيه بحر عميق .. وكل زبرجدة ربيع .. وكل عقيقة خمرة أصيل ..
وكل رعشة سنوات انفعال ..

لماذا لا نحاول ؟ ..

توهمت أنني طفلة

هل تؤمن بالنصيب ؟ ... وهل تعتقد أن هذه الكلمة تكفي لتبرير حادثة (مريعة) كحادثة زواج ؟ وإذا كنت تؤمن بالنصيب ، فهل تعني به شيئاً تختاره أنت ، أم شيئاً مفروضاً عليك ؟ .

ألا تشعر أحياناً بأنك كتلة من أعصاب ثائرة مبدعة ، وانك تستطيع أن تعيد تصفيف نجوم السماء المبعثرة ، وان النصيب هو ما ترسمه أنت ، وأنت وحدك ؟ .. ألا تشعر في فترات أخرى ، ان خيوطاً عنكبوتية خفية لا تدخل لك فيها ، تشيد ملاعك وتصرفاتك وعواطفك ؟ ... وأنتك تبتسم وتحرك وأنت شبه منوم ، كأن شعاعاً مبهماً ينهب أعماقك ، ويسلبك ارادتك ؟ انك تبحث عن تبرير لأعمالك بعد أن تقوم بها ، تحاول أن توجد لنفسك سلسلة منطقية تشد تصرفاتك كلها بشكل (معقول) .. فتصدق نفسك ، وتكاد تؤمن بتبريراتك ، وتضيع في بحران من الحيرة ، لأنك تؤمن داخلياً بأنك لم تكن (أنت) الذي تصرف ، ومع ذلك فإن مسؤولية هذه التصرفات تقع (اجتماعياً) عليك ... وفي لحظة ما ، تسأم من حاجتك إلى تبرير نفسك للناس ، فتصرخ فيهم : انه القدر .. « نصيب » ... وفي لحظات أخرى تشعر بأنك لست مديناً لأي إنسان بأي تبرير ، فتكتفي بالصمت ، وبالتساؤل المتعب : لماذا فعلتُ هذا ؟؟ ...

* * *

أثارت في نفسي هذه الخواطر صديقة رأيتها بعد فراق طويل ، وكان في اصبعها خاتم ذهبي التمتع بشدة حين قالت : نصيب ! ...

ولم أستطع أن أفهم إن كانت تعني ، النصيب الذي اختارته هي ، وهي بكامل قدرتها على الاختيار ، أم « النصيب » الذي ظنت أنها اختارته بينما كانت خيوط القدر هي التي حركتها ، وهي التي (اختارت) لها أن تختار !! ...

عرفتها منذ ست سنوات ... طالبة جامعية حسناء لم تبلغ العشرين .. وكنت يومئذ تلميذة في الصفوف المتوسطة ، أقرض الشعر سراً ، وأكتب القصة ، وأبكي مصير ماجلولين وسيرانو دي برجرارك دون أن يشعر بي أي إنسان ... وجاءت هي مع أهلها تزورنا في المزرعة المنعزلة التي تقضي الصيف فيها .. وهناك ، بين أحضان أجمة منطرحة عند أقدام بردى جلسنا نتحدث ... كنت بحاجة إلى البقاء وحدي وإلى الكتابة ، وكانت على ما يبدو بحاجة إلى الكلام .. إلى أن نتحدث إنساناً لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يؤذيها ... وكان في وجهها كآبة حقيقية وبؤس ملثاع .. ولعلها أنست بي ، وخيل اليها أنني طفلة لا يمكن أن تفهم في الحب شيئاً ، وأنها تستطيع أن تريح نفسها بالحديث دون أي خطر .. فأخرجت دفترها أصفر من حقيبتها وبدأت تقرأ :

من رآها ، خطوها حلم بأجفان الورد
وحنين ظامئ للافق ، للافق البعيد
وشعاع تاه في الحضرة ، كاللحن الشرود
كضياء اللون في اللون .. كأنفاس الوليد

واستمعت إلى القصيدة بأكملها بنشوة ملأها سعادة ... هل كانت الايات ؟ أم المكان ؟ .. أم أسلوبها الخاشع في تلاوتها ...

وسألتها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديق صديقي ... ولم أصدقها . بينما عادت تتغذى بالتلاوة :

واذكرني الشاعر دوما للربى	لقطيع المساعز المسترسل
لجداء يبسم الراعي لهسا	وعلى الاعناق همس الجللجل
لوريقات على النبع ارتمت	لارتعاشات بصدر الجدول

وعدت أسألها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديقي ... وانفجرت باكية .. وهوت الأوراق بين يدي .. وأقبلت عليها وأنا المغرمة بالكلمة الحلوة .. ورجوتها أن تترك الديوان لدي ، فقبلت بعد لأي .. ولما أعدته اليها بعد أيام ، لاحظت أنها كانت قد نسيت ، واضطرتني برودها إلى أن أخفي اعجابي بالأيات الحارة الصادقة .

وتهاوت الأعوام .. وسمعت أنها أنهت دراستها الجامعية بنجاح .. وكنت أراها في فترات متباعدة ، نضرة رائعة ، واذكر الشاعر المجهول الذي رفضت أن تبوح لي باسمه ، واذكر وجهه الشاحب الغامض الذي كان يترامى لي من خلال سطورهِ الفسقية .

.. وأخيراً رأيتها منذ أيام ، وخاتم الزواج الذهبي ياتممع في اصبعها ..

وتذكرت ما قاله الشاعر :

ترى هل نعود

نلم الحنين

وتقطف يا زارع الزيزفون

ثمار الخريف .. مع المهاجرة ..

وتساءلت طويلاً : ترى هل عادت ؟ هل أزهر الزيزفون في حديقة الشاعر الطيب

من جديد ؟ .. هل تزوجته ؟ .. قلبي قلق عليه ا ..

ووددت أن أسأله عن . لكنني خشيت من أن تسخر مني وتكون قد نسيت كل

شيء ... وظل الشاعر سراً ... سراً مغلقاً كابتسامتها وهي تقول لي : نصيب !! ...

تراها كانت تعني بهذه الكلمة رجلاً اشتراها، وتريد أن تتنصل من مسؤولية ذلك ؟ ..

كلمة نصيب لا نصيب لها من احترامي !! ... غالباً على الأقل ا ..

الحقيقة رائعة .. مهما تكن ممزقة ودامية

من قال إن أراني البيض ماتت ؟ من قال انني لم أعد أبالي بأي شيء يحدث في الوجود ، بعد أن لقيت أقيس ما فيه ؟ من قال انني سأظل أطل على الأشياء بعينين زجاجيتين فارغتين كنافذة بلهاء ، لا أبالي إن جرح خد القمر أو انتزعت الشمس قيودها الذهبية الأسلاك من الصحاري وانفلتت هاربة إلى كون آخر مهجور ؟ أنا هي التي قالت ذلك ذات مرة ؟ .. وهل صدقتها ؟ ..

ربما كنت أخدع نفسي حينما قلت ذلك .. ربما كنت أحيث حكاية الثعلب - والخصرم - المشهورة ... هل تعرفها ؟ قصة الثعلب الذي رأى كرمه مرتفعة جداً . تتدلى منها عناقيد شهية ناضجة ، سكبت فيها الكروم خمرة شمس وعنبر ، فاشتتهاها كما لم يشته شيئاً من قبل .. وحاول أن يقطع عنقوداً ففشل .. كانت العناقيد كلها مرتفعة جداً .. أعلى من أن تنالها قفزاته وحيله وأساليبه .. وبعد طول فشل ، أقع على الأرض تحتها وقد أخذ التعب منه كل مأخذ .. ورمها بنظرة اشمتراز وهو يقول بتعال واحتقار : انها لما تنتضج .. ما زالت حصرماً .. لا أريد أن أكل منها.. لا أريد !! ..

• • •

هذا الأسلوب في خداع النفس نمارسه جميعاً .. يمارسه عاشق فشل في التسلق إلى شرفة الحبيبة ، وأعيته نوافذها الموصدة ، فمضى بعد طول توسل يشتم الشرفة التي كانت منارة ، ويتهم النوافذ بالقذارة ...

ومارسته أنا يوم قلت ان أراني البيض ماتت ، وانني لم أعد أبالي بشيء ... فقد عدوت طويلاً وراء عناقيد الطمأنينة والثقة ، وفشلت مراراً ... ونفقت أراني البيض ، وغمرني هوان الفشل وكبرياء الفشل فقلت إنها اللامبالاة والسأم ! .. من يعرف ؟ .. أنا أعترف اليوم .. أريد أن أعري واقعي ، فعري الحقيقة لا يعرف

المفجور ، لأن الحقيقة رائعة مهما كانت ممزقة ودامية لمجرد أنها حقيقة .. ولأنه ليس خطأ أن تكتشف أنك كنت على خطأ ، وانك كنت تجامل نفسك وتخادعها . ولكن الخطأ في أن تستمر مكابراً حتى بعد أن تكتشف الحقيقة ... الخطأ في أن تظل تغلق النوافذ وترخي الستائر ، ثم تصر على أن الشمس لما تطلع ، وأن الليل ما زال يغزو المدينة .. إن الشاعر الأميركي الكبير - والت ويتمان - كان يفخر بأنه يقول الصدق في كل لحظة ، الصدق الذي يعيشه والحقائق الجديدة التي يكتشفها ولا يهمه إن ناقض نفسه أو كذب ما سبق أن أكدته ..

...

أنا قد فشلت مرة ، ومن لا يفشل ؟ .. لكنني أكتشف اليوم أنني كنت قد خسرت جولة واحدة لا معركة .. وأنا قد خدعت مرات ، ومن لا يُخدع ؟ .. وأنا قد تُلقيت الطعنات في ظهري ، لكن هذه الطعنات بالذات كانت تؤكد لي أنني أسير في المقدمة .. وأنا قد تأملت فعلاً .. ماتت أراني البيض جيلاً بعد آخر .. لكن كبرياء الألم ، هي التي كانت تزيّف الأشياء يوم قلت : - إن أراني البيض انقضت ، لم أعد أبالي بأي شيء ! - كبرياء الطفل الذي يأبى الاعتراف بأن أمه ضربته ، لأنه ما زال يحبها ! .. فيظاھر باللامبالاة والترفّع وهو يعرف أنه يجب أمه القاسية هذه .. أجل .. أحبها ! .. أمي : الحياة ، أحبها .. بكل ما فيها من بربرية ومدنية أحبها .. وأحب زئير أسدها وحفيف أجنحة طيورها .. أحب برقها الذي ينشق على سعادتي تارة ، والذي يحرق أهدابي تارة أخرى ويخلفها كهشيم يبدد .. من لا يحب الحياة رغم كل ما فيها من قسوة وجحود ؟ .. من لم يعيش هذه المأساة ؟ .. إن حبنا لإياها نفسها ، وتمسكنا المجنون بها رغم ما فيها من لامبالاة بانسانيتنا هو الذي يثير كبرياء ألسنا .. كبرياءنا ترفض هذا الواقع الذي لا مفر منه .. تريد أن تعاقب الوجود الذي أهملها باهمالها إياه ، وأنا حاولت أن أعاقب الوجود يوم صرخت : - أراني البيض ماتت .. الخدر يزحف نحو دفء الشفاه .. نحو بريق العينين الفضولي .. نحو حماسي ولهيبي - ... كاذبة كنت ! .. من قال ان النار تعرف الخدر ؟ .. من قال ان النار لا تحرق نفسها بينما هي تحرق الأشياء ؟ .. من قال ان الانسان قادر على أن يفقد وعيه ؟ .. من قال اني سأرفض الوجود بعد اليوم وأظاھر باللامبالاة ؟ ...

...

لماذا لا أعترف ؟ ..

أرانب صغيرة حلوة تعربد في أعماقي من جديد .. نحمل إلى سأم مغاوري وعداً
بصخرة تنشق ويتفجر الماء منها .. يوهدة تفور فجأة بحمائم من ثلج دافئ .. بغيمة لن
تمطر إلا في شرفي .. بصدفة لن تسكب لؤلؤها إلا في مفرق شعري .. بغدير لن
تتفتح أعين اللوتس فيه إلا لأغنية جديدة فرحة أنشدتها بنخشوع أمام تلال المجهول ..
فالحياة جميلة ، وأجمل ما فيها أننا لا نموت إلا لنحيا من جديد ، لا نترفح إلا لركض
من جديد ، لا ينفق جيل من أرابنا البيض إلا ويؤنس وحشة أعماقنا جيل جديد ..
ما زال في الكأس بقية ..

صديقي الذي كان يغني لي .. طوال الليل !

علمونا في المدرسة أن العين آلة تصوير دقيقة تلتقط صور المرئيات ، وأن عيون الناس جميعا متماثلة ، لها شبكية وقزحية وقرنية ... وصدقنا هذا كله يومئذ إلى أن بدأنا نكتشف أشياء ليست جديدة ، لأننا كنا نعيشها دائماً ...

إن أي كاميرا من كاميرات العالم تلتقط أي مشهد بشكل واحد في لحظة واحدة .. ولكن عين كل إنسان تراه بصورة تغاير الصورة التي تراه بها عين الآخر ، لأننا نرى الأشياء من خلال أنفسنا بكل ما تحمله النفس من نزوات وأمان وطين وطيب ... بل أننا نرى الشيء ذاته في لحظات نفسية متباينة بصور متعددة ...

قمر كالمحبوب مثلاً الذي طالما طفت في سهوله رحالة ما عرف الوجود أسعد منه ، هذا القمر نفسه ، يستحيل حينما تكون حزيناً إلى حطام مرآة عجوز ، طالما عكست ضحكات سعادتك ، أو وجه جرد أبيض مذعور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاما لتبتله ، ولتهرب به ساعة تطل عمامة الفجر ...

فالكون ليس كوناً واحداً .. إن ملايين العوالم تتناسل ، وفي كل ثانية يولد عالم ويموت عالم في عيني إنسان .. والوادي الذي يطل عليه مئة إنسان ، هو مئة واد جديد في كل ثانية جديدة .

... .

... هذا ما كنت أفكر به وأنا مكومة في ركن شرقي التي تطل على حديقة الجيران ، والقمر الذي طالما طفت في سهوله ، رحالة ما عرف الوجود أسعد منها ، هذا القمر نفسه استحال ليلئذ إلى وجه جرد أبيض مذعور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاما لتبتله ، ولتهرب به ساعة تطل عمامة الفجر .. حتى الشجرة التي انتصببت في الحديقة لتضم شرقي بحنان ، انقلبت تلك الليلة إلى مارد غيف تنبث من هيكله الضخم شحنات

سوداوية رعناء الحزن . وضحكات الجيران الساهرين المتحلقين حول الأشجار في
حديثهم تغيطني ، وابتهم السمجة تشد لخطيها بين لحظة وأخرى أغنية تتميز بخلاعة
بلهاء .

لم أكن أعرف كم من الوقت انقضى وأنا في جلستي هذه ، كثية كاتم ، خرساء
كموجة أعماق ... لكنني فوجئت بأبي يتأملني بهدوئه المعتاد ثم يسألني ببساطة : « ما
هي مشكلتك الليلة ؟ » .

وأبي اعتاد أن يراني هكذا ، كثية كاتم قارة ، وسعيدة ضاحجة كطبل قارة
أخرى ... واعتاد أن يسأل دون أن ينتظر مني جوابا ... لكنني أجبت بعد أن كرر
سؤاله : لقد ذهب ... اختفى ...

— من هو ؟ ..

— صديقي الذي كان يغني لي طوال الليل .. صديقي الذي يذكرني بصفاء غابات
شاسعة وبأمسيات صيف دافئة في حقول نائية ..

— من تعنين ؟ ..

— أعني صديقي ... الجندب !! .

لم يدهش أبي فقد ألف مثل هذه المواقف مني ، وعاد يسأل ببساطة : —

هل هو جندب (انطوائي) خاص اعتنيت بربيته في خزانة ثيابك كما فعلت
بفئرانك البيض ؟ ..

— لا .. على أية حال ، في مدينة كهذه ، يحب الإنسان كائنات الغابة أكثر من
حبه للناس .

— هل هو جندب مطبخ (بوهيمي) كنت تلتقن به بعض الليالي قرب (البراد)
وأنت ذاهبة في طريقك لتناول كوب من الماء ؟ ...

وعدت أجبته في أسى حقيقي وأنا أتجاهل مداعبته : لا ... ولما لاحظ حزني الصادق
بدت علائم الجلد على وجهه واسترسلت أحدثه عن صديقي الجندب ... إنه جاري ، كان
يقطن هذه الشجرة التي تعانق شرفي ... وحينما أطفئ نور غرقي كان ينشد ويهددني
.. يغرقي صوته في حلم طفولي فيه غابات ملونة الصخور وفيه صفاء نافذة تطل على

حقل ... ضحكات الجيران التي طالما أرقنتني صارت تنوب في براءة لحنه ، وأغنية
ابنتهم البلهاء المبتذلة لم أعد أسمعها ... حتى صغير القطار الكتيب كان يضيغ في
(إلياذته) البدائية ... أساييع عديدة وأنا فرحة به ، بأناشيده .

وانفجر أبي ضاحكا ، وحاولت أن أجاريه في ضحكه ففشلت ..

... لأن الجندب اخضى . لأن صغير القطار المهترىء سيحملني من جديد إلى
رحلة صفراء في حقول محروقة الحشائش .. لأن ضحكات الجيران الساهرين ستسلق
من جديد أرجل سريري وتتراكم فوق صدري ... ولأني وحيدة ولم أجد بعد (قومي)
أفضل الجندب على معارفي الحاليين ! ...

وفجأة ، مزقت ضحكات أبي صرخات من حديقة الجيران .. وأطلت ، ورأيت
ابنتهم الحسناء التي ينخل إلي أنها دمية من لب الخبز الأبيض المضغوط ، ابنتهم هذه قد
استندت إلى جذع الشجرة وهي ترتعد بدلع .. وعند أقدامها ، قرب الحد الساتاني
لحداثها بقعة سوداء تلتطخ الأرض ! .. وخطيبها الشاب يربت على كتفها مهدئا ...
ولما سألهم والدي : ماذا حدث ؟ ..

أجاب خطيبها باشمتراز : لا شيء . إنه جندب خبيث لعله سقط من الشجرة .. !
لقد أخافها اللعين لكنني قتلته ! .. وأشار إلى البقعة السوداء التي كانت تلتطخ الرخام
الفاخر ! ! .

وفي أقل من دقيقة سمعت من جديد أغنياتها المبتذلة . وظلت عيناى معلقتين بسواد
البقعة الدامي الذي أخذ يتسع ويتسع حتى غمر كل شيء ! ! ..

السفر .. أهو نزوة همجية في مطاردة ما أجهله !!

محفظتي الجلدية الكبيرة سعيدة لأنها قلما تستقر في ركن خزانتي .. إذ لا تكاد أنامل الغبار تمسح خدها ، حتى أنتزعها من موضعها ، لأحملها معي في رحلة جديدة ودرب جديدة .. فأنا أهوى السفر ، حتى ليخيل إليّ أن غيمة شروداً تقطن أعماقي وتظل تلوب وترهقني في بحثها المضني عن أفق سري .. تحب أن تبعثرها نسمة وتلمها نسمة .. يغازلها قمر وتلمها نجمة .. تطل على غنج بحر وترف بيد ، ونرف شفق .. أحب الرحيل .. كلما دارت دوامات المتاعب والأحزان حول عنقي وعربدت ، وضغطت ، ألمح في الأفق البعيد شبحاً وردياً لمدينة فضية القباب تغمز لي ، كأنها رسول من المجهول ... ما ألد أن يكون في الحياة مجهول نسعى وراءه ، نسكن إليه عندما تبدو الأشياء المزيفة على حقيقتها .

. . .

هل هي رغبة في الهرب ؟ ومن أي شيء ؟ من ملايين الأسئلة التي تنصب مع كل دقة ساعة صامتة ؟ إن كنت هاربة منها ، فأنا هاربة إليها .. لأنني أهرب من غموضها ، إلى غموض المجهول وعتمته السحيقة .. أبدأ ندور في حلقة لاهئين .. وكأننا نحن نحب دوراننا وجهلنا وعذابنا .. محكوم علينا أن نحبها لأنها تشدنا إلى التراب ، ولأننا تراب عطش لا يرتوي ..

هل هي نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟ أم جوع إليه ؟ .. لا أدري .. كل ما أعرفه أنني أحس فجأة أن علي أن أنطلق .. يسكرني انطواء الاسفلت تحت عجلات أربع .. يسكرني عدو ظلال أعمدة الهاتف إلى الخلف لاهثة مذعورة .. تسكرني أنات المحرك ويلد لي منظر عامل محطة البنزين بوجهه الملطخ بالشحوم والذي يذكرني بدروب لا نهاية لها ..

وانطلق .. وتهدأ الغيمة إلى حين ، وكأنما يرضيها بحثها عن أرض طيبة تنعقد في
سمائها مطراً طيباً لتبدع فيها وتخلق شيئاً ما ... لتغزل شراعاً ما عند نافذة مورقة ...
وبلادي جميلة .. واللاذقية جميلة .. بحرهما غنج ويبدرها ترف وشفقها نرف خمر عناقيده
طيب وسكر ..

واللاذقية وديعة وطيبة ومعطاء كهروس نخجلى .. ما عرف البحر استسلاماً لوشوشاته
أرق وأحلى من استسلامها وخفرها .. فهو يداعبها بنشوة أول شراع عائق نسمة .. ثم
يهدأ لحظة عندما تتعاقب قرب أفقه نظرات متلهفة جاءت ترقب لحظة الغروب ...
وتترلق الشمس إلى أحضان البحر ، فتفتح في زرقة دامية شهية ، كأنها وردة عجزية
وحشية الحمرة ، ما عرفت أحلى من أعراسها في بحر اللاذقية وتفتحها المثير في الموج
الدافىء الدافىء ...

لم أجد في « الفرلق » عندما زرتها للمرة الأولى منذ أسابيع (بئر التمنيات) ..
لم أرم في أية بئر بقطعة نقود فضية وأنا أغص على دعاء صامت ، أهم ما فيه أن أعود
إلى « الفرلق » .. لكنني عدت .. عدت إلى الغابة التي توشي بداءتها بالصدق ، وتملأ
غرورنا بنخشوع راعش أمام جبروت الزمن ... عدنا إلى الغابة بوجوهنا عارية إلا من
الحقيقة ... فالشعاع اللامرئي يمسح هناك بصمات الزيف عن خطوط وجوهنا ..
وتتصبب الانفعالات جريئة حقيقية فخورة بصدقها ..

وتثن الغيمة - التي تسكنني - وتتلوى .. تريد أن تتيه في دروب « كسب » ..
ونعضي .. وتلوح « كسب » في صدر الجبل ، وشماً بلوي الرسوخ .. غاباتها الغامضة
متكبرة ، لا تبوح بأسرارها .. تتشبث بالضباب الشفاف المتصاعد من أعماق وديانها ،
وتلتف به في غلالة من سحرو ترفع .. فأقف بين القمم ، وأشهد البحر يرقبها بحسرة
عاشق سئم الجزر ، وغلبه حنين يائس إلى عناق قمة .. عبثاً يتلهف .. القمم تغرق في
أحضان النجوم عندما يظلم الضباب ، وتلهث القمة .. وانطلق من جديد في الدروب
البعيدة لأن غيمتي الشروذ نهمة لا تشيع .. وبلادي جميلة ومعطاء ..

-
- الفرلق : غابة بديعة في شمال سوريا .
 - كسب : قرية ساحرة في شمال سوريا .

ونمضي من جديد ..

عند خد « مصياف » يسترخي (وادي العيون) عجب الحضرة والنضارة ..
يتدفق من وهدياته وأغواره صفاء مياه يشبه صفاء عيون أهل الوادي .. وتهلأ الغيمة ..
وترقب في الجبل المقابل خيوط دخان تصاعدت من دار وديعة بعيدة .. ويخيل إليها
أنها تشم فيها رائحة طعام دافئ ملحه حنان وثقة ... وترتعش الغيمة وتهلأ .. وتحقق
من جديد فترى شجرة وحيدة بعيداً في قمة الجبل .. شجرة غريبة وكثيفة كأنما لم
تحس أن في الوادي القريب ملايين الشجر الصديقة . وفي السماء فوقها بدر يطل بود
دونما ترفع ..

وترتعش الغيمة وتحس أن قدّرها هو قدر الشجرة النائية لا الدار الوديعة ..
وتنعقد في عقمها قطرة مطر وهي تهذي ... بلادي جميلة يا دروب التيه ..

المأساة الحقيقية أن تستحيل الأشياء إلى ملل

من منا لم يعيش أسطورة السأم ؟ .

حينما يستحيل وجودنا إلى قطار يلتهب برتابة ، سجيناً بين قضيين فولاذيين مهترئين ، لا يعرف في أي نفق مظلم أُلصقا بعجلاته ، ولا يعرف متى يسلم عنهما ..

من منا لم يعيش أسطورة الضجر ؟

حينما تنفجر اللاجلوى من الأشياء ، والقلق الذي كان يلهب انفعالاتنا يبدو أبله سخيفاً .. الحب .. الفن .. الخلود .. شعارات زائفة فيها الكثير من مكابرة عاشقة فاشلة .. وتصاب حواسنا بلعنة (ميداس) فيستحيل أي شيء يقع تحت طائلتها إلى حفنة من دخان ضبابي ثقيل .. حفنة من ضجر . لا مهرب من طاحونة الملل التي تسحق وجودنا . ونستسلم . أي نصر نبتغي ما دام محكوما علينا بأن نموت ؟ ..

...

هل تعرف أسطورة (ميداس) ؟ ..

كان في غابر العصور مدينة ككل المدن .. لها سحابة ومثلثة وقوايت وثياب عرس ، وشارع تتزلق فيه وجوه عيونها مغاور حيرة وقلق واحتجاج حار ... وكان ملكها الذي يدعى ميداس مغرماً بالذهب . وظل أبدأ يتوسل إلى الآلهة كي تمنحه المزيد ، حتى حققت الآلهة رغبته ، بأن جعلت كل ما تلمسه يدها يستحيل إلى ذهب وهاج .. فكان طعامه يستحيل ذهباً قبل أن يمضغه ، وابنته تستحيل ذهباً قبل أن تبارح شفتاه خدما .. وبعد أيام استحال كل ما في المدينة ذهباً .. وتنفجر السأم من كل شيء .. وغرق (ميداس) في إحساس لزج بلا جلوى الأشياء .. ومات ميداس يوم بدأت حكاية الضجر وخمد الشوق والقلق ... وموت أيام وأيام وولد ملوك وصعاليك .

انتصبت مدن وهوت مدن ولعنة (ميداس) تنسل رعناء تتغذى جذورها من لعنة الموت .. من لحظات الوعي المفاجيء بأننا سنموت دون أن نمنح حق الرفض أو الاختيار .. هكذا فجأة ، نموت . قد يحدث هذا قبل أن ننجز القصة التي نكتبها . قبل أن نحصد موسمنا الأشقر ، قبل أن يستدير البدر عند كتف الغابة ونشترى الثوب الأزرق المبتغى للحبيبة ! ذات يوم سنشارك أحقر بعوضة في الغدير مصيرها .. سنموت !! .

كفاحنا من أجل الحب والفض يبدو في تلك اللحظة مضحكاً ، ونذكر أننا قطع يتلهى بالشجار اللامعدي ، ريثما يستيقظ الجزار وينتقي ضحية اليوم .. وانا سجناء المارد (بوليفيموس) في مغارته المربعة بعد طول تيه في البحار مع (أوديسيوس) . عينه المنفردة في منتصف وجهه المشوه تطل على رعبنا وشهقات ذعرنا .. تسخر من حضارتنا وأشعارنا وأغانينا . ننهار في زاوية الكهف . لا فائدة من المقاومة ما دام المنتصر والمهزوم يشتركان في مصير واحد أمام المارد « بوليفيموس » .

* * *

هذه الخواطر كلها توهجت فجأة حينما سمعت رجلاً يهتف بصوت عتيق رهيب الاستسلام : « سبحان الحي الذي لا يموت ! » وجنازة تمضي .

كنت ساعثذ غارقة بين أكداس من الورق ، في غرفة فضولية النوافذ أضحك مع زملائي ، أجيح رنين الهاتف . أكتب ، وخيالاتي المحمومة تتفجر من قلبي ، وصريره الخاص على الورق أبواق نشوة تحملني إلى عوالم أنا خالقتها ، وقصور أنا سيدتها .. كنت أكتب .. أنتشي أخلق وأدمر .. أحي ..

وتسلل الصوت باستسلامه المرعب يصرخ : « سبحان الحي الذي لا يموت »

خرجت إلى الشرفة . أطلت على موكب الموت . سيارات تتبع صندوقاً راکضاً نحو قبر ما ، تلاحق احداها الاخرى كسيل من النمل الأبله يتحرك بقدرية صمياء . في الشرفة المجاورة شاب اقرب كثيراً من زميلته وأطبقت يده على يدها المسكة بالافريز وكأنه يقول لها : لماذا تهربين ما دمنا سنموت ؟ .. استسلمت لأتون يده . أحسست برغبة في أن أنفجر في قهقهة لا معنى لها .. ليست ضحكاً وليست بكاء . مجرد تنهدة سأم . عندما يقبلها سيفهمان معنى اللاجدوى ..

وعدوت إلى مكتبي أحمل معي « لعنة ميداس » .. النوافذ الفضولية تنقلص وتختفي .

جدران الغرفة تظلم وترتفع . الأصدقاء يغورون . لا أحد . رعب يعربد في ذرات
دخان بليد .. يزحف .. عيناى معلقتان بفجوة في السقف . تضيق . النجوم تدبل
وتختفي . ليل ذعر أبدي ينشر شباكه مع عناكب رخوة ولدت قبل أن نولد . لا كوة
في السقف . الغرفة تابوت من هلع ووحشة .. عين (بوليفيموس) تطل من كل مكان
محمومة ساخرة . تظل تقترب . ميداس يئن في ركن ما . صفحات قصتي التي لما تنته
تطير . تماثيل تعدو . كلمات تقفز من كتب صفر وتختفي . الدوامة خائقة . ميداس
لم يعد يئن . الشاب الذي كان يغازل صديقته في الشرفة ينسل من الدوامة ويسم لي ..
سننتصر معاً . أمد يدي لأتحسس وجهه . يستحيل فجأة إلى جمجمة صفراء مرعبة
الحوات . لا مفر . يغمرني إيمان حقيقي بأن لا مفر . وأرفض الأشياء . لا شيء سوى
الموت ، من يهرب من التابوت ؟ وأهوي في لامبالاة ضجرة ، حينما لا نقاوم ، تختفي
الأشياء التي كنا نقاومها . ميداس لم يعد يئن ، وأنا لا أشعر بشيء .

• • •

وأخرج من المكتب وأنا أحمل تابوتي وأدور به ، وأنا أتجول في طرقات مدينتي
التي استحوالت إلى ملل ..

أحياناً تستحيل الأشياء إلى ملل .

أحياناً فقط !! . تلك هي المأساة الحقيقية .. (ميداس) اعتاد ضجره ، واستراح
إلى سكينه يأسه .. أما نحن .. فلجنة ميداس تنحسر عنا في فترات طويلة ، فنعود ننحت
التمثال من جديد ، نروي الموسم الأشقر من جديد .. وفي لحظة وعي ممزقة ، نرفض
ولا نبالي من جديد .

ونظل نتأرجح بين سكينه اليأس وعذاب الأمل .. ونظل نحترق في مباحر الفن
والحقيقة ولا نفنى .. نشارك (بروميشوس) مصيره في كل لحظة .. ان راحتنا الكبرى
هي نفسها هزيمتنا الكبرى .. تلك هي المهزلة ..

ثار عندما اكتشف اسمه !

لما هبطت من الطائرة ، كانت تحمل في عينيها أصدقاء قديمة لصرخة (ميجانا) عند جفن الوادي ، (لأبو الزلف) و (عتابا) ، وليال دافئة موشاة بعبير الياسمين .. لو يضم عنقها المتعب طوق من ياسمين .. يفرقها عبيره في حلم شرقي من زبد عطري أبيض .. دارها ١ .. تذكر أنه كانت في الدار شجيرة ياسمين إلى جانب (البحرة) العتيقة ، ومياها المتناثرة بغنج شلال من نزوات راقصة ... وهي اليوم قد عادت تحمل أصدقاء جائعة (لأبو الزلف وعتابا) ، وليال دافئة موشاة بعبير الياسمين .

هكذا رأيتها ، كما رأيناها جميعا بينما هي تهبط سلم الطائرة ، وتحمل حقيبة في يدها ، ثم تستبدل بها طاقة من الورد قدمتها لها مواطنة من بلادي .. إنها مغربة ، عادت لتتحسس الجذع الذي أنبتتها ، لتدس برأسها بين الجذور ، وتشم رائحة التراب ، طعم التراب .. عجيب هو التراب هنا ..

لم تكن وحدها .. كانوا عشرات من الشبان والشابات والكهول . مجموعة إنسانية متباينة السن والمشارب ، جاءت لتسجد لحظة ، لتبحث عن أغنية « ميجانا » ظلت ضالة في جفن واد ، يوم انطلقت من حناجرهم الطفلة منذ أعوام بعيدة .. أحسنا منذ الوهلة الاولى أن في وجوههم شبه نداء ، وشبه بوح يجذبنا .. هتافاً أبح ينسل نخجلاً مشتاقاً من مسامهم .. ان فيهم الكثير من كآبة الشرق الرصينة ، من روحانيته البخورية الشفافة ..

وحملنا حقائبهم . كنا اخوة . أحسنا بأنهم من أهل البيت .

أحدهم قال ان اسمه خليل .. ثار وأرغى وأزبد حينما اكتشفت ان اسمه في القائمة هو (شارلز) . قال ان له أمنية في حياته : هي أن يزور قبر صلاح الدين . وتحققت رغبته حينما قضينا اليوم التالي كله في زيارة معالم المدينة الأثرية ...

وهنا اكتشفت أمراً غريباً هو أننا نجهل مدينتنا !! ... لماذا ننكر ؟ ..

* * *

لماذا ننكر ذلك ؟ ...

هل زرت الجامع الاموي وقبر صلاح الدين وكنيسة حنايا والبيمارستان النوري والمدرسة العادلية والقلعة الاثرية ؟ هل تعرف تاريخها وقصتها ؟ هل رأيت متحف دمشق الذي يضم بين جنبيه أقدم حضارات العالم ؟ ..

هكذا تساءلنا جميعاً (نحن المتطوعين كأدلاء لإخواننا المغتربين) . وفي لحظة صدق وتواضع ، اتضح اننا لا نعرف الكثير عن آثارنا .. هلا طرحت على نفسك السؤال ذاته ؟ ..

لا تقل لي أنك لا تحب الآثار ، وانك تكره الأشياء الجامدة والمهترئة والميتة ... فالأشياء المهترئة هي أشياء ذات ماض ، ذات حضارة ، مرت عليها ليال وليال ، في كل ليلة ألف نسمة متعبة ، وألف حكاية لاحتضار فراشات ممزقة ، ولفجر شرائق ملتصقة ، وألف بصمة لإنسان .

وآثارنا ليست ميتة .. إنها حية لأن قصتها لم تنتهِ بعد .. قد تُعتبر ميتة إذا قيست بعمر الإنسان الذي يقدر بمئة عام ، لكنها كيان رائع يتحدى مقاييس بشريتنا ... انها ليست شيئاً جامداً .. إنها عالم متجدد حي . لحجارة المعابد صوت يروي ملاحمها ، ولنارها ظلال تفصح كظلال وجه عاشق .. ولفسيفسائها صدى رنين محبب وديع .. لكننا مع ذلك لا نعرفها حق المعرفة ، فما هو السبب ؟؟ ...

إن أول شيء نفعله حينما نذهب إلى أية مدينة ، هو أن نزور آثارها ، فلماذا لم نتعرف حتى اليوم على كنوز مدينتنا ؟؟ ..

لا أعتقد أن السبب يرجع إلى عدم احترامنا لها ، فكلنا يقدرها ويشعر — ولو لم يرها — بأن في مدينته ما يستحق الفخر .. أعتقد أن السبب الوحيد هو أنها قريبة ، في تناول يدنا !! ... ان قدرتنا على زيارتها أي يوم دون أن نتكبد مشاق السفر تجعلنا باستمرار نهمل الأمر ... لسهولته !! فهي — بوجودها قريبة — تبسط نفسها أمام أعيننا ، وتغمرنا بإحساس من التملك المطمئن ، الذي يقود إلى الإهمال ...

* * *

إنها حكاية الزوجة والصديقة ! .. الزوجة التي كانت رائعة يوم كانت صديقة ،
يوم كانت شيئاً بعيداً غسقي الغموض ، ثم أصبحت زوجة مدمشة لا ينتقص من
روعتها الا امتلاكه لها .. فهي لم تعد تثير في النفس إحساساً بالقلق ، وكلنا يحب قلقه كي
يشعر باللذة حينما يطمئن ، وكلنا يحب الأشياء البعيدة كي يعيش نشوة الركض ونشوة
التعب ونشوة النصر ..

وآثارنا ، « الزوجة الجميلة » التي لم نعد نحصى مفاتها ، لأننا نمتلكها ، تستحق
نظرة فرس وإمعان ..

العيد والطائر الأخضر

أنا لا أحب العيد .. فالثياب الحديدية لا تبهرني .. والهدايا وكلمات الاطراء لا تهزني في قليل أو كثير .. أما الحلويات فأنا لا أذوقها إلا في حالة الجوع وأفضل الخبز عادة .. وأما الأهل والأصدقاء فأنا أكره أن يكون عليّ أن أظهر عواطفني نحوهم في مواسم معينة .. وأما الآخرون فان تفكيري فيهم لا ينحصر في مدة أيام ثلاثة .. ومظاهر الفرح والضجيج أيام العيد تجعلني أنظر إليها برية وتساؤل ، لأنني أعتقد أنه كلما كان الفرح عميقاً وحقيقياً ، كان التعبير عنه أقل تبهرجاً وإفصاحاً . وأنا أحزن في العيد ، اذ يحيل إليّ ان في زوبعة الاحتفال والضجيج المبتهج نوعاً من أنواع الافتعال والعدوى العاطفية الجماعية ، أكثر مما فيها من أحاسيس فردية صحية .

مرة : أيام كنت طفلة ، سألت أبي وأنا أشرق بغصة الخيبة : « ماذا في العيد حتى يحبه الناس هكذا » .. ؟ وضحك يومئذ من تحرري الساذج وقال : « يوجد طائر أخضر مذهب ينطلق في العيد من قوس قزح بعيد ، ويحدث الناس حديثاً لم يسمعوا مثله قط ، ويحيب عن أسئلة أكثر الاطفال مشاكسة ، مثلك » .. إذن الطير الاخضر المذهب المسجون في قوس قزح بعيد ، لن ينطلق إلا في العيد .. لأجلي وحدي .. وعشت أعياداً كثيرة عملة .. فأغاني الطائر الأخضر المذهب لم تشرق في نافذتي ..

ومرة ، هربت مع بعض الصديقات في رحلة إلى تدمر .. إلى حيث كان فجر العيد شيئاً صوفياً علوياً مدهش الصفاء والصدق والضياء .. لا ضجيج .. لا مفرقات شريرة .. لا لغط .. لا قيود .. ولا ثوب جديداً .. لا واجبات وزيارات وكلمات مهياة في قوالب خاصة بالعيد .. لا شيء سوى أنا ، الجزء من (الأنا) الذي يمت إلى السماء بصلة ، أخشع لبراءة الرمل واتساع الافق وصمت الإله الضاج وهمهمات الرياح عند شفاة التماثيل حتى لأخاها تنطق . وانطلقت يومئذ وحدي في درب الأعمدة ، حارية القدمين ، أرفع للإله في كل شيء جميل صلاة النشوة والابتهاال : وأبحث عن الطير الاخضر

لأجد نفسي الحقيقية . في صدق حكاياه .. أفكر كما يحلو لي ... أخشع لحقيقة انتصار
الإنسانية على الفناء .. فزنوبيا حية تههم في مكان ما .. كأنني أحس لسع أنفاسها
خلف أذني .. والمجامر في أعلى الأعمدة العتيقة تخشع لتأوهات البخور وتضوع الطيب ..
ما كان أحلى رائحته .. ما كان أبهى شوارع تدمر وهي تفور بحياتها الماضية حينما
تبعث حية ولو لبرهة واحدة في خاطر إنسانة ما .. وتمددت على الرمال بينما ولد
الطائر الأخضر عند آخر عمود في الدرب .. وإذا بحكايات الريح تنسل من منقاره
مفهومة واضحة .. جاء الطائر .. بلا تعازيم من حلوى .. بلا طقوس الثوب الحديد
واللفظ الرشيق .. جاء في قداسة الصمت والغربة ونشوة الحقيقة . وخلف الطائر الأخضر
المذهب كان وجه أبي ييسم عند الأفق وكان عيدي الأول ..

يا رأسها الأشقر .. أترجم الحضارة السوداء بالحجارة ؟

دمشق كانت تتململ في أحضان الحر يوداعة رغيف يشوى في التنور حينما خرجت من داري ، وفوجئت بلفحات ساخنة تلسع الحدود والمقل ، وترك الانسان في حالة من الاستسلام المذهب ، والاسترخاء الفكري البليد .. كنت قد قررت الذهاب إلى موعد ما ، لكن شمس الساعة الرابعة ، وتيار الهواء الرطب الذي انسكب على وجهي حينما مررت بباب إحدى دور السينما أغرباني بالدخول إليها دون تردد . لم أقرأ اسم الفيلم ، لكنني اكتفيت بلوحة كتب عليها : « الصالة مجهزة بتكييف للهواء » .

جلست في مقعدي ومددت ساقى إلى الأمام وبدأت أعد نفسي لاغفاءة شهية .. وأطفئت الأنوار ، توالدت الصور فوق الشاشة .. كانت منذ البداية جذابة ومؤثرة . لم أتم . الفيلم كان يحكي قصة حسناء مكسيكية خلاسية . ماتت أمها الزنجية يوم وضعتها .. وبدأت مأساة هذه الحسناء (الملونة) يوم تزوجت من أميركي « نقي الدم » !! ...

ولما عاد بعروسه إلى أهله ومدينته ، فوجيء بأسلوب الجميع المهيمن في معاداة زواجه .

وتنبهت حواسي وأنا أرقب إنسانين يكافحان رسوبات مجتمع لما يصل بمدينته إلى التحرر من سخافات توارثها . ولذا لي أن أرقب وجوه الناس التي كانت مشدودة إلى الشاشة بذهول متهم واحتجاج حار .. وفجأة .. علقت نظراتي برأس أشقر وعنق أنيق . كانت على ما يبدو أمريكية أو إنكليزية ، ترقب الفيلم بلا مبالاة مؤسفة أثارت حنفي .. وفي أحد المواقف المؤثرة جداً ، عندما تقف البطلة الملونة الحسناء بعينيها الخضراوين الكئيبتين أمام المحكمة لتدافع عن نفسها ، ولتثبت أنها أخبرت زوجها قبل زواجهما بأنها زنجية الأم ، في هذه اللحظة بالذات ، عندما أحسست باختناق رطب في حاقبي ، وعندما كانت سيدة بجاني تمسح دموعها خلسة ، رأيت (الأوروبية ؟) المصون ، تنفجر ضاحكة

بسخرية ! ... لا أدري كيف تماكنت نفسي ، ولم أنهض لأغرس أصابعي في خديها ، ولأدير وجهها إلى الشاشة بوحشية ملايين الأكف السود الدامية ، ذات (الحضارات) الإنسانية ، التي تقف (المدينّات) الفجة ، عاجزة عن فهمها واحترامها .. حضارة ممارسة الانسان لانسانيته . تمنيت أن ألصق على وجهها عينيّن عرييتين لترى بهما ، ولتدرك أن زيادة في الحبيبات الصباغية لا تحيل الانسان حيواناً ، وان حرارة الأعوام التي تحيل الفحم الأسود ماساً قد تكون صهرت أعماقهم السمر فأحالتها إلى مغاور ماسية قوس قزحية الوميض .. لكنني أحسست فجأة أنني أتحامل عليها ، وأريد أن أصب على رأسها الأشقر جام غضبي من مجتمع أصابته لعنة غرور المدينة ..

خرجت من السينما . استقبلي الحر من جديد . أذكر أن أحد (التاكسيات) وقف أمامي وفتح الباب . ارتيمت بداخله دون وعي مني . لم يكده السائق يلدير المحرك ليعاود سيره حتى استوقفه صوت ينادي (تاكسي) .. وفوجئت بها تحمل رأسها الأشقر وتقف به أمامي ، دون خوف !! .. وبلطف رجّت أن تقاسمني سيارة الأجرة . ووافقت .

واستدار رأسها الأشقر وسألني عن وجهي . لم أكن قد قررت بعد إلى أين أذهب . قلت أحدثها بلغتها : « اذهبي أنت أولاً ، لست على عجل من أمري » . شكرتني بعذوبة لزجة ثم حددت للسائق مكاناً بعيداً جداً في (المزرعة) .

حاولت ألا ألتفت إليها كي أظل مهذبة ، لكنني أحسست أنها كانت تسترق النظر إلى وجهي ، وإلى شعري الأسود جداً وبشرتي السمراء . قال الرأس الأميركي فجأة : انك تتقنين الانكليزية ، هل أنت أجنبية ؟ ..

— ماذا تعتقدين ؟ خمني ...

— إسبانية ؟ .. انك لطيفة جداً على كل حال لأنك قبلت مشاركتي سيارتك .

كانت تحدثني بمودة لا حد لها . لم يعد بوسعي أن أغالب رغبتني في مشاكتها : فأجبتها : « أنا ملونة !! .. أي من أصل إسباني وأمي زنجية !! .. »

هتفت ورأني باشمتراز مذعور : زنجية !! ...

وشاهدتها ، تللم طرف ثوبها وتتكوم في ركن السيارة ، كأنها لم تكن قبل لحظات تتحسس سمرتي باعجاب ! . كأنها لم تكن تتودد إلي وتتملقني .. ماذا حدث ؟ .. هل ثار كبرياء المدينة ؟ . الغول الأسطوري الأعمى ، ألم يشبع ؟ .. آه يا رأسها الأشقر ،

يا مدنيّة الزجاج الملون ! .. أترجم الحضارة السمراء بالحجارة ؟ ... جرحني تصرفها
كانسافة ، فأصررت على ازعاجها ، واسترسلت أسألها : « ألا يبدو عليّ أنني ملونة ؟ ..
وزنجية ؟ »

قالت بقرف : بلى ! .

لم تحدثني بعد ذلك وإنما جلست في السيارة كأنها وحدها التي تركبها .. كأنه لم يعد لي
وجود ..

استحلت إلى ذبابة .. كل ما فيها كان يوحى بأنني ذبابة .. وأخيراً أمرت السائق
بأن يقف أمام بناء كبير ونحفظت للتزول ، ثم لانت ملاحظها وهي تهبط ، ونظرت إليّ
بتودد مهين وهي تقول : سأدفع نصف الأجرة ، وتدفعين أنت نصفها الآخر !!

وهنا ، هنا فقط خنقني قرف حقيقي . كنت طوال الطريق ذبابة ، ثم استعدت
(انسانيّ) بنظرها لحظة الدفع فقط ! ...

ولما تحركت السيارة من جديد ، وغيب الغبار رأسها الأشقر : تحسست سمرقي البنية
بكثير من الاعتزاز ، واستنشقت هواء مدينتي النقي بكثير من النشوة .

ما رأي طيور الغابة بهيئتنا الجرادية !

كنا جماعة من الأصدقاء والصديقات أقسمنا على الانتحار بالسيارة !! ...
كان هذا على الأقل رأي صديقة رفضت أن ترافقنا في رحلتنا فور سماعها لمخططها ،
وعملت قائلة بأننا مجانين نحاول تجريب طريقة مبتكرة أرستقراطية للانتحار ، وذلك
باستخدام سيارة فاخرة ، عوضاً عن « حبل غسيل » أو سم القُثران .. وهكذا كان ...
طريق الصحراء بين تدمير وحمص شاق ومرهق .. لكن عناق ذرات الظلمة والنور
ساعة انبلاج الفجر يرسم صورة حلوة لحقيقة الحب .. أبدأ يغازل الليل النهار ويلاحقه ..
لا يسأمان هواهما ، لأن شفاه الضياء ما تكاد تلامس شفاه الظلمة حتى تذوب فيها
وتتلاشى . مخلقة حلوة الوهم والشوق .. إنه الحب الحقيقي لأنه المستحيل !! ..

وتدمر ... لم تلح من بعيد كأكثر المدن ، وإنما انبثقت فجأة في كف الصحراء ،
كأنها رؤيا شرقية انحسرت عنها الرمال ساعة وطئنا أحد المنحنيات ... ووجدتها جميلة
كسراب .. حزينة ومهزوزة كأسطورة ...

ولما غرقت شمسها في المعبد الأسمر ، وفاضت الظلمة من حوامل المشاعل المطفأة
منذ أمد طويل .. أدركت أن الليل في تدمير أجمل من ليل أي مكان آخر عرفته .. ظلال
الأعمدة تتلوى ، كلما سقط عليها نور سيارة تهيم بين الرمال .. وهسهسات الريح في
المقابر البيض ، تروي لذهولنا حكايا غامضة لم تمسها شفة .. يا لخلود الموت وكبرياء
الصمت وهذيان الصمت .. يا لذرات الرمال ونبضها واحتجاجها وشوقها .. يا ليل
تدمر .. يا عجينة طيب ورؤى وتهاويل خلفناها وراءنا لننتقل في سباق محموم مع الشمس
إلى غابة « القرق » .. ولنكسب السباق ..

تدحرجنا من السيارة بين الموت وما يشبه الحياة : السائق ظل ملتصقاً بمقعده كأنما

أضحى المقود مجرد امتداد (بلاستيكي) لعظام يديه .. غابة الفرلق عالم هدوء رصين ،
يسخر من متاعبنا المعشقة في (دهاليز خواطرنا الحضارية) ، والتي كانت (تنعب) بين
فترة وأخرى ..

بداءة ضخامة الأشجار ، تُشعرنا بالضآلة .. بؤخزات مبهمة ساخرة .. بأحداق
مسحورة تطل من غيمات معلقة عند أهذاب الغابة ، تضحك من ثيابنا ومجاملتنا ..

والطيور في الغابة مدهشة .. إنها جريئة ، اقتربت من صديق لنا وأخذت تحديق في
بندقيته بما يشبه اللامبالاة .. أحسست أن لها شخصية خاصة بها ، كثيرة الاعتزاز . لم يكن
في أعينها أية رواسب من هباب مصنع ، أو ذعر من زعيق حافلة .. فظلت براءة
متحدية ، جريئة ، كالحقيقة ، شفاقة كالصفاء .. وظلت أقدامها خالية من دمايل ،
تخلفها وقفات مرهقات على أشرطة الكهرباء في المدينة ..

سألني إحدى الصديقات : ما رأيك بهذه الطيور ؟

وأردت أن أجيبها .. لكن اتساعاً عجيباً وعمقاً مرعب الأغوار في نشيد الغاب
جعلني أصمت فجأة ، أشعر بالضآلة ، بتواضع لذيذ يشدني إلى عيني حصان كان يعبر
الغاب ، وإلى فراشة أصرت على الوقوف فوق صدري ، وإلى الطيور الكبيرة وفضولها
اللذيذ بينما هي ترقب صديقاً لنا انتحى أحد الأركان وغطى وجهه بالصابون استعداداً
لحلاقة ذقنه ..

ما رأيي بالطيور ؟ ولماذا رأيي أنا بالذات ؟ بل ما رأي هذه الطيور فينا ؟ .. أنا هنا
في الغاب قد فقدت امتيازاتي التي تمنحني لإياها لمعة حداثي ، ورصفة شعري المصفف
وشهادتي المعلقة فوق البيانو ... لم يبق لي ، ما يمنحني الحق هنا ، في التحدث والنقد
والتكبر وفرض الرأي ، أكثر مما يعطيها .. لم يبق مني هنا .. إلا (أنا) ...

تري ما رأي الطيور فينا ؟ في صديقنا الذي ما زال ينحت ريش خديه بأداة حادة
يمكن أن تقتله لو ... ما رأيها في تحلق أكثرنا حول « صحيفة » تثير نقوشها السود في
نفوسنا السعادة أو الغضب أو النقاش الحاد ؟ .. ما رأيها في تغامزنا وريائنا ، والسراويل
التي نسكب أعضائنا فيها ؟ ألا نجد شكلنا فيها ممجوجاً كجراحات أفلتت من قيود الطبيعة
وظلت تنمو ؟ .. هل كان يضحكها أسلوبنا في الأكل واستعمالنا (لساقينا الأماميتين) مع

أفواهنا بينما هي تلتقط الحب بمنقارها بأناقة ونظافة ؟ .. تراها تحترمنا ؟ تخافنا ؟
ترثي لنا ؟

الرحلة انتهت . لكن أعين طيور غابة « الفرق » تلاحقني كلما كذبت ، وكلما
سخرت من إنسان حتى ولو كان يستحق السخرية ، وكلما منحت نفسي حق ابداء الرأي
بالآخرين ، أو رأيتهم يمنحون أنفسهم هذا الحق ، وكلما رأيت صديقاً يتلون ، أو
يزيف ذاته الهلامية التي تتخذ بسرعة شكل الوسط المحيط بها ولونه .. ولا أملك إلا أن
أتساءل بحرقه : لماذا يختنق نشيد الغاب عند مراكز جمارك المدينة ؟ لماذا يتمزق عند
قدمي أول شرطي سير ينظم الدخول إليها ؟ .

احتجاج تلميذة على أساليب التعليم المضجرة !

كان سلوكي في المدرسة ، شبيهاً بسلوك كائن
نصف متوحش ، يمضي في الطريق المألوفة كي
يحصل على طعامه ، لكنه ينسحب هارباً به إلى
وكره ، ليمارس اقتراس زاده من العلم بأسلوبه
الخاص .

— أ . ميلن —

شاعر يزور مع الليل (١) «تشوسر» * وأنا

الظلمة تغفو في موقد دارنا ، وصرير قلبي على الورق يחדش سكينته الصمت ..
النور الباهت ينعكس على الصفحات ويرقص متعباً على جيبني ..

رميت القلم فجأة ، وتنهدت بارتياح وأنا أغمض عيني .. الحمد لله .. انتهى المقال
الذي كنت أعدّه عن الشاعر «تشوسر» لإحدى الصحف .. الموضوع سمج فعلاً ،
وطريقة العرض مدرسية كلاسيكية لا جاذبية فيها .. ثم ان مصادر بحثي لم تتعد كتب
النقد المعروفة التي لا تغلو من بعض التشويه للحقائق .. وعلى أية حال فالشاعر المرحوم
تشوسر لا يستطيع محاسبي على ما كتبت بعد أن توفي سنة ١٤٠٠ ..

وإذا احتج النقاد على بعض آرائي قلت لهم : مذهب جديد !! .. وإذا بالغوا قلت
لهم الحقيقة : هكذا درّسوني في الصف ! ...

سأنهض الآن لأنام .. وفي الأسابيع المقبلة سأكتب لقراء الصحيفة عن بايرون
وكيتس وبراونينغ وغيرهم من أحبائي الشعراء ..

وبدأت أتأهب .. وفجأة .. جمدت .. كان الباب يفتح ببطء شديد .. وصريره
البارد يملؤني ذعراً ... وبدأت أفكر بسرعة .. لا أحد من أهل الدار يجرؤ على دخول
غرفة مكتبي .. أنخي بفضل الذهاب في رحلة إلى القطب على المغامرة بالجلوس بين
أكلاس كتبي المتناثرة بفوضى سبك يوم الرحيل ! ..

من يمكن أن يكون زائري ؟

ورأيت منتصباً عند الباب يتأهب للدخول .. تلتصع عيناه السوداوان بريق عجيب

* الشاعر جيوفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) Geoffrey Chaucer

لا يمت إلى عالمنا بصلة .. وكان أغرب ما فيه ثيابه .. ثياب القرن الرابع عشر .. وانسلت
قدماء بسكون فوق السجادة دون أن تنوصا قيد أنملة في وبرها الطويل . حتى خيل إلي
أنه لا يمسيها : وإنما يطير فوقها .. أو أنه بلا « وزن » فيزيائي .. كالأرواح ! ...

ولما استعدت السيطرة على وتر أو وترين من حبال الصوتية سألته : من أنت ؟
من أين دخلت ؟ وما هذه الثياب التي تبدو فيها كالمرج ؟ .

أجابني بلهجة انكليزية عذبة . ولكنها صعبة الفهم :

— لست مهرجاً أيتها البلهاء .. أنا تشوسر أبو الشعر الانكليزي .. وثيابي أبدع ما
ارتدي في قصور جنوه وفلورنسا ..

— من أين أتيت ؟

— من عالم ما وراء الضباب حيث « يوتويا » الفنانين .

— ما الذي جاء بك إلى غرفتي أيها الشبح الثائر ؟

— أنت أيتها الشقية . أما يكفيني ما لقيته من زملائك الذين تناولوا أشعارنا وحياتنا
بالدرس والشرح ؟ .. انكم تبررون لنا أخطاء نفخر بأننا من صنعنا .. وتنسبون لنا
فضائل نخجل منها .. لقد طفح الكيل ..

— وما ذنبي أنا ؟

— أنت القطرة الأخيرة التي فاضت بها الكأس . ثم اذك ترديدن الكتابة عن المشاهير
أمثال بايرون وشيلي .. مع أن اليوتويا تعج بالعظماء غير المشاهير .. إن آثارهم الخالدة
بين يديك .. قد لا تلفت الأنظار لأن كاتبها لم يكن زير نساء كبايرون .. ولكنها
بتواضعها الشامخ ، كالبنفسجة التي لا ينتقص من جمال غيرها أنها تلصق خدها إلى خد
التراب الندي والتي شبه بها الشاعر « ورد سوورث » حبيبته « لوسي » حين قال :

« بنفسجة .. قريبة من حجر مطحلب ..

نصف مخفية عن الأعين

جميلة كنجمة مفردة

حينما تلتسع وحيدة في ظلمة السماء » ..

وعدت أسأله بعناد :

— تعني أن الفرق بينهم وبين بايرون وشيلي كالفرق بين الجاحظ وأبو حيان التوحيدي ؟ .. كتب الأول قد طبقت شهرتها الآفاق ، وكتب الثاني بحاجة إلى من ينكب على نثرها الفني المقتضب بالدرس والتمحيص ؟

— أجل ! .. هذا ما أعنيه تقريباً ...

واقرب مني .. تناول مقالي الذي سهرت الليل أنخلق في كتابته .. وأخفاه في صدره .

وأثار دهشتي أكثر من غضبي !

— لماذا (صادرة) ولم تمزقه ؟ ..

— الأرواح تكره التمزيق والتحطيم .. ثم اننا نريد الاحتفاظ به في الملف الخاص بسك ! ..

— ماذا تريد مني ؟

— أريد أن تدعينا في سلام .. كفانا ما لقينا من النقد .. امتنعي عن استغابتنا في هذه الصحيفة .. وابحجي عن مصدر رزق آخر غيرنا ..

وقررت دون أن أفكر : أما يكفيني ما ألقاه من الأدباء — الأحياء ، حتى أدخل في معركة ثانية مع ... الأموات ؟ ..

حسناً .. لن أكتب شيئاً .

ثم فكرت ، فقررت شيئاً آخر : ماذا لو اعتذرت وبينت لهم السبب ، وحدثتهم عن لقائي بالأشباح ! ! .. لن يصدقني أحد ! ..

وصممت على أن أصمد .. واجهته بنظرة جمدها الرعب فبدت هادئة ، وسألته متحذية :

— إنني مصرة على الكتابة عنكم ..

وتخاذلت نظراته فجأة وتبددت قسوتها .. فأدركت أن الأدباء الأموات قد نسوا المساومة وقال :

— ما دمت مصرة أيتها البائسة الأرضية ، فلا مناص من أن يحضر شبح أحدنا إليك كلما أردت الكتابة عنه ، وبذلك تستطيعين استجوابنا ، ونقل أحاديثنا إلى القراء ،

دون الرجوع إلى كتبك المهرثة المغلوطة ... سنجيبك عن أكثر أسئلتك وإنما بشرط ..
— ما هو هذا الشرط ؟ ..

— ألا تكتبي حرفاً مما قرأته في الصفحات الصفراء .. سيسألك القراء وتأمين نفسك ..
اكتبي الحديث الحي الذي يدور بينك وبين الشاعر الذي يزورك مع الليل ، وانقله إلى
القراء بأمانة وصدق .. ولو فوت عليك ذلك فرصة استعراض عضلاتك الثقافية
ومعلوماتك المدرسية يا شاطرة ! ..

— حسناً .. سأبدأ بك الليلة .. وابعث لي في الأسبوع التالي بشيخ ميلتون .
— لا .. سأبعث لك بمن أشاء ! .. ولكن يجب أن تعتادي الأدباء الأشباح ..
— ليسوا أكثر شراً من الأدباء « الطازجين » . على أية حال .. سأبدأ بك الآن ..
استعد ..

وبدا لي أنه لم يسمعي .. انسلت نظراته خلال النافذة إلى آبار السواد في السماء
حيث كان شهاب يهوي .. يحترق .. والظلام يبتلع رماده وتأوهات .. وهتف مدعوراً :
— لأنهم يستدعونني ويجب أن أعود حالاً .. انتظريني في الأسبوع المقبل ..
وقبل أن أجيب ، فتح النافذة بلهفة ، وخطا منها في الفضاء ، وطوته أمواج
الظلام ..

ومضى زائري مع الليل إلى عالم يولد فيه فجر كل لحظة .. وترك لي وعداً بالعودة
في الأسبوع المقبل ..

ترى هل يصدق وعده ؟ .. انتظروا معي ..

دمشق ١٩٦١/١/٨

شاعر يزور مع الليل (٢) « بايرون » يفاجئني

أطفأت الأنوار ، وجلست بانتظار شبح « شوسر » الذي وعدني بالمجيء . مكتبي يسبح في نور خمري مرتجف ، تبعثه النار التي تحتضر في الموقد أمامي . الظلال ترقص في الزوايا ، وتملأني برعدة لذينة ، فيها من رعشة ساحر هندي ينادي الأرواح الشاردة مع نسيمات الليل الباردة .. وظللت أتساءل « ترى هل يصدق وعد الأشباح ؟ » حتى رأيت الباب يفتح ببطء كالمرّة السابقة .. وانسلت نظراتي تتحسس الشبح الداخل ، وكانت مفاجأة مذهلة ! ..

لم يكن شيخاً متعباً في ثياب القرن الرابع عشر ! ..
كان شاباً رائع الجمال مدهش الأناقة .. بقلمه عرج واضح وهو يتزلق فوق السجادة دون أن يمسه بأخمص قدميه .
وبدأت أفكر بسرعة .. شاب رائع .. أعرج .. وشاعر . من يمكن أن يكون سوى ..

— أجل ، أنا بايرون ! .

هكذا قال فجأة وهو يجلس على المقعد أمامي ، وكأنه كان يقرأ أفكاره ..
وهتفت مدعورة :

— بايرون ! . لكنني لم أستاذك .. لماذا جئت ؟

— رأيت شوسر يتأهب للحضور .. ولما أدركت أنك « صحفية » لا صحفي غلبتني

• الشاعر جورج بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) Lord George Byron

« عاداتي الأرضية » .. وجئت .. تجاهلت نظراته المتفرسة وسألته : ما دمت قد جئت .
تفضل . حدثني عن أيامك الأرضية .

— ولدت لوردًا في أسرة ممزقة .. أبي منفصل عن أمي التي عبثًا تلاحقه بجها ..
ولما أصبحت يافعاً ، اكتشفت العاهة التي خلفوها في قدمي يلهمهم . تألمت وأحببت .
أحرق وأحترقت .. أنا « دون جوان » الشاعر المشرّد .. إن قصيدتي « دون جوان »
هي أعظم ما كتبت ، لأنها بالإضافة إلى ما حوت من نقد اجتماعي لاذع السخرية ،
تروي قصة حياتي .. لنقل قصة وجه من وجوهها .

— ما هي قصة « دون جوان » ؟

— « تجدين .. آثار تفكير طويل ، ودموع جافة تركت بعد انحسارها أشدوداً قاحلاً
عميقاً .. نبشت عنه الأعوام المسافرة ..

ذرات رمال الحياة الأخيرة

وأضحى عارياً .. لا تلوح فيه زهرة ! »

— ما هي شخصية « دون جوان » التي تقول انك سكبت نفسك فيها ؟

— « هو .. هو ذاك الذي شاخ في عالم العذاب بالتجارب .. لا بالأعوام .. وسبر
أغوار الحياة فما من أعجوبة في الأرض تستوقفه .

لا الحب ولا الأسى .. لا الشهرة ولا الطموح » ..

— هل أحببت النساء ؟

— أجل .. أحببتهن بطريقتي الخاصة ! .. وغيت لهن أعذب الألحان .. اسمعي :

« لا نزهة لنا بعد اليوم ..

حين يغرق الليل في الصمت والحرق ..

مع أن قلوبنا ما زالت عاشقة ..

وأشعة القمر ما زالت عذبة » ..

— انك كاذب ! .. ما أحببت قط سوى نفسك يا بايرون .. أحببت ظلك في عيون

النساء .. وأحببت المرأة لأنها ، بجها لك ، تشعر بك بسطوتك ، وسحرك الذي لا يقاوم ..

أحببت المرأة كمرآة لجمالك اللامتناهي .. وأحببت ذاتك حتى أنك اخترت لنفسك ما
أبواه عصرك «أشرف ميتة» .. لا تدعي أنك انضمت إلى اليونان في نضالها ضد السلطنة
العثمانية من أجل عقيدة الحرية .. لقد ذهبت لأنك كنت تريد أن تموت .. لأنك سئمت
وجودك .. ولأنك تريد أن تموت بوسيلة تليق بإنسان (رائع) مثلك ، ميتة يصفق لها عصرك
وتلمع لها عيون الفتيات ..

— أنك تظلميني ..

— لم أظلمك أبداً .. ألم تقل :

« لماذا تعيش ان كنت قد سئمت شبابك الفارغ ؟

أرض الموت الكريم .. تلوح هناك ..

إذهب إلى الميدان .. وودع أنفاسك ..

ابحث عن قبر جندي ..

انه أنسب الأشياء لك ..

ثم تلفت حولك .. واختر الأرض التي تريد ، واسترح « !

— وماذا تعرفين أيضاً عن حيي لنفسي ؟

— أعرف الكثير .. لقد انتقمتم لقدمك التي شوهتها امرأة من نساء العالم جميعاً .. ثم

تمنيت لنفسك المعبودة الخلود .. فأحببت الطبيعة وتمنيت أن تمتزج بها لتخلد خلودها ..

— هذا غير صحيح تماماً وغير خاطيء تماماً ... ككل شيء ! ..

— ألم تقل :

« حيي للإنسان ليس بقليل

ولكن حيي للطبيعة أكبر ...

وفي لقائي معها ، أحاول أن أنسل وأتحرر ...

من كل ما يمكن أن أكونه ..

وما كنته ذات مرة ...

لأمتزج بالكون .. ولأحس ما لا يمكن التعبير عنه أبداً ..

ولا يمكن أن يخفى كله مع ذلك ! » ...

— أيتها الحمقاء .. اسمعي سيباً إضافياً لإعجابي بالطبيعة والبحر ولا تكوني كسائر
النقاد ، لديهم أبيض وأسود فقط ، ويعجزون عن رؤية تموجات النفس البشرية في ذات
الفنان :

« تدحرج أيها المحيط قائم الزرقة ..

تدحرج ...

عشرة آلاف أسطول يتزلق فوق صفحتك انزلاقاً ...

عبثاً ملأ الانسان أرضه بالحكام ...

لكن سيطرته توقفت عند الشاطئ ...

وفوق سهول الماء الشاسعة ..

فإن كل حطام يطفو على صفحتها هو من صنعها هي

هنا ...

لا يتبقى أي أثر لنهب الإنسان ...

لا يتبقى سواه لبرهة وجيزة ..

ريثما يغوص كقطرة مطر ... ويهوي في أعماقك يا بحر مع تأوهات المختلطة

بالفقاعات .. يلاق قبر ..

بلا جرس في كنيسة .. بلا كفن .. وبلا هوية ! »

— حسنا . اخبر لي « وحدانية الرؤيا النقدية » ، وقل لي هل كنت سعيداً بزواجك ؟

— « الأمل .. الخوف ، الغيرة والمتاعب ...

الألم الدقيق .. وحرارة الحب ..

لم أذقها جميعاً .. وإن كنت أرتدي في اصبعي سلاسلها ..

— انتظر لحظة .. لدي سؤال أخير ..

لكنه لم ينتظر .. كان رماد الموقد قد امتص بقايا اللهب ، ودفنها في أحشائه ..
وهوى شهاب في قضاء الليل وابتلعت الظلمة تأوهات ورماده ..
ونفض بايرون وانسل من الغرفة وهو يهمس بعذوبة فائقة :
« عندما افترقنا في صمت ودموع
بقلبين نصف محطمين .. لتفترق أعواماً ...
شحب خذك وبرد .. وبردت قبلك أكثر
وتنبأت تلك الساعة .. بعذابي اليوم »
واختفى .. وظلت الجدران تردد بعده :
« إذا ما التقيت بك
بعد أعوام طويلة ..
ترى كيف أحبيك ؟
في صمت ودموع » ..
مضى بايرون .. وانسلت إلى فراشي في صمت ودموع .

شاعر يزور مع الليل (٣)
« دون » دونما امرأة واحدة وفيه

أي روح لأي شاعر ضائع سيجمل الليل إلي ؟
هذا السؤال كان يرتسم في طيات الستائر ، ويختلط مع وهج نار الموقد فيزداد رهبة
وغموضاً .. لم يَطل انتظاري ، فقد انسل شبح زائري فجأة واستقر أمامي بلا تحية ..
لم يتأمل وجهي بفضول كما فعل بايرون من قبله .. لم ينحن على يدي ويقبلها برقة
على طريقة الشاعر الأعرج الغزل .. وتجاهل فضولي واستغرابي وانطلق منشداً :
« إذهب وامسك بنجم يهوي ..
واحصل على جنور السحر الوهمية ...
أخبرني إلى أين تمضي الأعوام الراحلة ...
ومن شق قدم الشيطان إلى شطرين
علمني الإنصات لأغاني حرائس البحر ...
وإبعاد لسعات الحسد عن أعماقي ..
إرحل عشرة آلاف يوم وليلة ..
حتى يرسل الزمن آلاف شعيراته الثلجية فوق رأسك ...
وعندما تعود .. ستخبرني بالعجائب التي رأيت ...
وستؤكد لي حين تعود ..

• الشاعر جون دون (١٥٧٢ - ١٦٣١) John Donne

انه ليس في العالم كله .. امرأة واحدة وفيه جميلة «

— لا بد من أن تجد ولو امرأة واحدة وفيه جميلة ...

— « إذا وجدت واحدة .. فاخبرني ..

الرحلة إليها ممتعة ممتعة ...

لا .. لا تخبرني فلن أذهب إليها ...

مع أنها قد تكون جاري الحساء ..

فريشما تصلني رسالتك ...

وتخبرني بوجودها

تكون قد خانتك مع اثنين أو ثلاثة ! «

وأدركت وحدي أنه الشاعر (دون) علو المرأة .. الذي عاش في عصر الملكة
اليزابيث بين عامي ١٥٧٣ - ١٦٣١ وإن كان شعره ، لا يحمل خصائص هذه الفترة ولا
يمت إليها بصلة ...

ولم أشعر بغضب المرأة لبنات جنسها ، وإنما بغضب فكري ضد التعميم الأحق ...
أردت أن أقول له أن بين الرجال من ليس وفياً أيضاً ، كما بين النساء ، لكنني سمعت
صوتي يقول : لماذا جئت أيها الوقح ما دمت تكره النساء ؟ .. (لقد غلبني ضعف الأرضي
اللعين وغضبت !)

— جئت أطلب منك أن تتركينا نموت بسلام .. لقد أثرت الخلافات في كهوف
الأدباء زجاجية الجدران .. بايرون أمضى أسبوعه الماضي يغني :

« عندما افترقنا ،

في صمت وسكون ...

بقليين نصف محطمين ،

لنفترق دهوراً ...

شعب نخلك وبرد ...

وبردت قبلتك أكثر ..

وتشوسر أمضى أوقاته كلها في صيغ شعره المستعار ، وتلميحه ، وكى أكام قميصه
المنشأة ، التي كنت سترينها لو لم يسبقه بايرون إليك وأسبقه أنا !! ...

— لماذا جئت إن كنت تكره المرأة ؟

— جئت لأقول لك انك باردة وعديمة الاحساس ..

— قد يكون هذا حقيقياً ولكنه لا يبرر حضورك . ثم إن (البلاد) ضرورة لكل من
يعيش في (الوسط الأدبي) هذه الأيام

— وانك سليطة اللسان ..

— هذه أفضل تزكية لي عند مكتب الصحيفة التي أعمل بها !

— وانك سببت مشاكل لا حصر لها في (اليونويا) زجاجة الجدران ..

— أنتم الذين تتنازعون وتتنافسون على الحضور إلي .. ومع ذلك يتبارى كل منكم
في شتمى أمام الآخر وادعاء عدم اهتمامه بي .. هكذا أنتم .. أبدأ أيها الشعراء والأدباء ..
وما أشبه الليلة بالبارحة ! ..

— ولكنني كما تعلمين أكره جنسكم وجئت فقط ..

وقاطعته صارخة : أنت تكره المرأة ؟ ألم تقل :

« حرريني .. فكى أو خطمي قبودي ...

شديني إليك .. اسجينيني ..

فلن أكون حراً أبداً

إلا إذا استعبدتني !!

لا .. ولا فاضلاً

إلا إذا اغتصبتني !! »

وانفجر ضاحكاً فجأة وقال ساخراً :

— هذه الأبيات ليست غزلاً قيل في حسناء كما خيل إليك وللكتيرين ..

ولأنما هي قصيدة من شعري الصوفي .. وأنا في هذه الأبيات أستعطف « الثالث
المقدس » كي يحررني من قيود الحياة ويضمني إليه لأن حريتي المطلقة تكمن في عبوديتي
للخالق .. هذا شعر صوفي أيتها الحمقاء ! ...

وأدركت أنني أخطأت حقاً .. بينما تابع حديثه :

— إنك لم تسألني إلا عن الحب .. لم يخطر لك الاستغناء عن أسلوب وخصائصي
الشعرية .. كم أنت محدودة التفكير .. إنك كبنيات جنسك جبيعاً .. لا هم يكن في الحياة
إلا الحب ! ..

ونخيل إليّ أنني أمام ناقد شرس القسوة ، يتغذى ظلمه لي بسعة علمه وذكائه ..

وسألته بصوت متقطع كتمتات تلميذة كسول تتلو جدول الضرب :

— حدثني عن مدرستك الشعرية وخصائصها ...

— أنا ناثر .. ناثر على المدرسة الشعرية الواهية ، التي سادت في عصر الملكة اليزابيث .
ناثر على صنعتهم اللغوية الفارغة ، وحذقتهم الجوفاء الرنانة ، ونعومتهم اللزجة في
الأفكار والتعبير ...

— وشعرك نسيج رائع من الذكاء والتركيز ..

— لم أستعمل العبارات المتعارف على أنها شاعرية .. لا ، ولا الخواطر والموضوعات
التقليدية .. بعثري كلماتي بتجديها عادية وعارية .. الشعر ينبع من الفكر لا من اللفظة .

— أظنك كتبت في البداية شعراً غنائياً غزلياً (ليريك) ، ثم انطلقت في أجواء
« ما وراء الطبيعة » وأجواء الدين .. والوعظ الأصيل إنسانياً ...

— هذا صحيح بطريقة ما ...

— ولهذا السبب سميت مدرستك (ميتافيزيكل سكول) أي مدرسة (ما وراء الطبيعة) .

— تسميات النقاد ليست من شأني . لكنني أقر بأننا كنا ثورة على شعر العصور

الوسطى ...

أجل ! إننا نتميز بغرابة أفكارنا ووسائل تعبيرنا عنها .. الأمر الذي لم يكن موجوداً
في الشعر السلطحي المترف لعصر الملكة إليزابيث المترف .. شعرهم يفتقر إلى الصلابة
والمتانة والصدق ، وكبرياء الرصانة ، والاتزان ... والتكشف البديعي ، والثراء الفكري
والروحي .

— وأين تكمن الشاعرية في مدرستك الخاصة ؟

— إنها لا تكمن في شكل الكلمة وإنما في مضمونها .. في الرعدة التي يبعثها المعنى .. ليست ألوان الحرف المبهرج هي التي تهزك عندنا وإنما هي ظلال الحرف .. بعثري كلماتنا تجديها عادية عارية .. العبرة في الروح التي ترصفها والأجواء التي توحى بها ، شعر جديد لرؤيا جديدة .. هذا هو شعري .

— هذا مفهوم حديث جداً للشعر وأجده بوضوح عند الشاعر الأميركي والت ويتمان .. لقد سبقتم عصركم بعدة قرون ...

— وهذا سبب عدم إعجاب الجماهير بنا في عصرنا ... ولكن النقد خلدونا بعد موتنا .

— حديثك طلي ... أشعر بأنني أميل إلى سماعك .

— هكذا المرأة دائماً .. تعجب بالرجل الذي لا يعيرها أدنى اهتمام ...

قال هذه العبارة بينما انطلقت نظراته تبحث بلامح وجهي وتتحسسها — باهتمام — واستدركت غاضبة :

— لست معجبة بك كرجل — أعني كشبح — وإنما كشاعر ..

وتجاهل ثورتي ، وتابع بهدوء قائلاً : في المرة القادمة سأرسل اليك بعض مبدعي مدرستي أمثال « هيريك » و « هيرت » .. و ...

— إذا لم تحصل مبارزة ويشرفني بالحضور سواهما .. من يدري .. قد يحضر شبح من النوع الذي يتلهف على أن يثني — لواعج — كرهه مثلك .. لم أعد أصدق وعودكم أيها الأدباء .. الأشباح ..

وقبل أن يجيب .. هوى شهاب في فضاء الليل ، وابتلعت الظلمة تأوهات ورماده ... ومضى شبح ضيفي معه في صمت وسكون ... ومضيت إلى فراشي في صمت وسكون ..

شاعر يزور مع الليل (٤) « بوب » بين اللاأخلاقية .. والأخلاقية

لم ترقص الستائر بهلع .. لم يرتعد اللهب في الموقد .. لم يهو الشهاب في الظلمة
باستسلام متعب .. لم يصدق وعد الأشباح هذه المرة !

بدأت ذرات الفجر تنفض عن نفسها الغبار الرمادي ، وتوهج فوق منضدتي
بتكاسل يثير النعاس .. لم يبق أمامي إلا أن أعود إلى الكتاب الأصفر السميك ..

وضعته أمامي على المنضدة ، وأخذت أقلب صفحاته ، ورائحة بخور قديم تفوح من
الحروف ، وتغمري بنشوة المعرفة ..

توقفت نظراتي عند صفحة توجهها اسم « الكسندر بوب » الناقد والشاعر الكبير ،
الذي تقاسم مع درايدن و « جونسون » مسؤولية النقد وتوجيه الأدب في القرن الثامن
عشر .. كنت قد وجدت أن أجمل أشعار بوب ، هي التي ضمنها نقده الاجتماعي
الساخر ، ولكن هذه الأبيات لم تجلب نظري هذه المرة .. كان الذي أثار اهتمامي قصيدته
المشهورة « مقالة في النقد » التي تحدد معالم شخصية « الناقد » وتوضح رسالته الحقيقية ..

كتبها وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وطبعت عام ١٧١١ ، وابتغى منها
أن يطبق على الناقد ، ما يطبق على الأديب من مقاييس كلاسيكية .. لذلك فإن بوب رائد
المدرسة « النيوكلاسيكية » في النقد ..

ومعظم الآراء التي تضمنتها مقالاته ، هي حصيلة آراء أرسطو ولونجا مينوس
وهوراس وكوينتيليان وفيدا ..

والجديد في هذه القصيدة ، أنها تشترط في الناقد الأصيل أن يكون متمتعاً بالتنوع

الأخلاقية والفطرية نفسها التي طالب بها الأقدمون الشاعر . أي أن « بوب » يشترط في الناقد ، أن يملك « الموهبة » والأصالة إلى جانب المعرفة والذكاء ، والجهد الشخصي .. وهذه « الموهبة » البدائية ليست حصيلة المران والتجربة ، وإنما هي بالمفهوم الحديث : استعداد طبيعي .. وفي هذا نجده يقول :

« كما أن الموهبة الأصيلة عند الشعراء نادرة ..

فالذوق الأصيل نادر عند النقاد ..

والناقد كالشاعر ، يستمد الإلهام من السماء ..

فالنقاد وللوا لينقلوا ..

كما ولد الشعراء ليكتبوا » .

ولا شك أن عبارة « يستمد الإلهام من السماء » تستوقف أنظار القارئ العصري .. ولكن الدهشة تزول ، عندما نتذكر أن بوب تلميذ مخلص « المدرسة الأفلاطونية » ، التي تؤمن بأن الشاعر يكون واقعاً تحت سيطرة أحد الآلهة كلما نطق شعراً .. (روح النظرية هي أن للشاعر موهبة إضافية وليس أباً كان) .

وأنا هنا لن أتعرض لزخمة الآراء المناهضة لهذه النظرية ، أو المؤيدة لها ، لكن بوب أراد منها مفهومها العصري دون أن ينبذ جوهرها التراثي .. أي أنه اشترط أن يتوافر في الناقد عنصر (مبهم) لا يد له في خلقه ، وإن كان قادراً على تنميته وحسن استغلاله .. هذا العنصر هو الذوق الرفيع ، وهو « شرط لازم وغير كاف » .. وإنما يجب أن يرافقه العلم .. ماذا يعني بوب بالعلم ؟؟ اسمعوه معي يقول أبياته المشهورة في أنصاف المتعلمين من النقاد :

« قليل من العلم هو أمر خطير !

اشرب حتى الثمالة

أو ، لا تقرب من ينابيع المعرفة !! ...

لأن الجراحات الحقيقية منها تسكر العقل ..

والجراحات العميقة تعيد لك صوابك ! ... »

ولكن بوب لا يقنع في أن يكون اللواقعة « فأر مكتبه » كي يصبح ناقداً ، وإنما يطلب منه أن يُلّمّ إلاماً تاماً بطرُوف الأديب الذي ينتقده :

« في دراستك لأي أديب قديم أو حديث ..

اعرف موضوعه .. وجهة نظره في كل صفحة ..

ديانته ، موطنه ، عبقریات عصره ..

وبدون هذه العناصر أمام عينيك ..

قد يحق لك أن تخمن ، لا أن تنقد ! »

ثم إن الناقد ، يجب أن يتمتع بما يشبه الحاسة السادسة ، أو ما أود تسميته « بالرادار الأدبي » لأن :

« الأدب كالموسيقى .. في كل منهما ..

جمال لا يحتويه اسم

ولا ترشد إليه قاعدة

ولا يمكن أن تلتقطه ، سوى أذن أصيلة

والناقد الأصيل إلى جانب هذا كله ،

سعيد بأنه يعلم ، وليس فخوراً بمعرفته ..

مثقف بالرغم من تواضعه .

ومتواضع بالرغم من طيب منبته ..

في جرأته اعتدال ، وفي قسوته إنسانية ..

يوضح لصديقه أخطاءه ببساطة ...

ويمدح عدوه بكل سرور » ...

ومن المزايا الخطرة في النقد ، أن يضيق الناقد بين الشعر والأدب والنقد ، وهو يقسو على أولئك الضائعين بقوله :

« هنالك بعض الذين يتقلدون بأسوأ مما يكتبون ! ...
 بدأوا كأذكياء ، وقبلناهم كشعراء ...
 ثم استحالوا الى نقاد ! ..
 وأثبتوا أخيراً بوضوح ...
 أنهم ليسوا سوى حمقى ! » ...
 وبوب أدرك خطر النقد السخيف حتى إذا كان موجهاً ضد مقال سخيف :
 « قد يخطئ عشرة نقاد في تقديم لشخص مخطئ ! ..
 وبعد أن كان أمامنا سخيف واحد ،
 نجد عشرة آخرين الى جانبه ! ! ... »
 ولكن ، ما هي رسالة الناقد الخطيرة التي تتطلب هذه الامكانيات كلها ؟ . ليست
 مهمة الناقد تحطيم الأدباء كما يعتقد بعض النقاد وإنما يجب أن يكون الناقد :
 « المروحة الكريمة التي ،
 تريد نار الشاعر اضطراما ...
 وتزيح عن جمراته الحمر ،
 رماد التمر وغباره ...
 وهو الذي يُعلم الناس
 أن يدعموا إعجابهم بالعقل والمنطق ! .. »
 هذه هي صفات الناقد الذي نستطيع أن نلقي بانتاج الأدباء بين يديه ، بكل اطمئنان
 ولكن .. لمن نقدم مثل هذا الناقد المثالي ؟ لأي نوع من الأدباء ؟ .. أين هو الأديب
 الذي يستحق مثل هذا الناقد ؟ ...
 أنا لا أقصد هنا التعرض لسلوكية الأدباء الذين يصرون على أن شخصيتهم أمر منفصل
 تمام الانفصال عن أدبهم ... أنا لا أقصد أي شيء من وراء تساؤلي ...
 ولكن يدي تأييان إلا الاستمرار في تقليد صفحات الكتاب الاصفر ، وعيني

قد استقرت بإصرار على اسم « راسكين » ، وعلى بحثه الشيق حول « العلاقة بين الفنان والأخلاق » بينما يدور تساؤل في خاطري بإلحاح متعب : « من هو الأديب الذي يستحق مثل هذا الناقد المثالي ؟ » ... ومن هو الفنان الإنسان ، الفنان الحقيقي ؟ - ان كان هنالك ضرورة لشيء كهذا !! ... -

إن لدى راسكين جواباً مثيراً .. إنه يرى أن أي صانع يدوي عادي ، يحتاج إلى مقدرة عقلية معينة ، كي يتحكم في عضلاته بدقة ومهارة أثناء العمل ... فآية مقدرة عقلية وخلقية يجب أن تتوافر في صانع يدع فناً يخلد على مر الأجيال ؟ ...

إن إبداع أي أثر في يحتاج إلى توازن وانسجام بين جميع قوى المبدع الحيوية .. وقدرة مدهشة على التحكم في مرونة تفكيره ، إلى جانب صلابة عزمه ... فضلاً عن نشوة البذل المطهرة التي ترافق كل عملية خلق ، والتي تشبه النشوة التي يتحسسها النسر حين يحرك جناحه القوي خفقة إثر خفقة ... نشوة تغسل أدران النفس ، وتجعل الفنان في حالة عجيبة من السمو الخلقي والروحي ... - على حد تعبير راسكين الذي يتابع : -

بعد هذا كله ، هل يعقل أن يكون مثل هذا الرجل الذي خاض تجربة كهذه ، رجلاً (سيئاً) أو أن يحمل قلبه الكبير حسداً نهائياً ، أو تقمة سوداء الحسرة ، أو حقداً وضيقاً ؟ ...

وهكذا يرى راسكين أن طبيعة العمل الفني الرفيع ، تتطلب من منتجها الاعتياد على مرونة ذهنية معينة ، وتحكماً أخلاقياً في الحواس والإرادة ... مما يؤدي به دونما مجهود إلى كمال (أخلاقي) نبيل ...

وأول ما يخطر بالبال بعد قراءة هذا الرأي هو مبالغته ! . وأكثر الذين ابدعوا ، أمثال بايرون وفان كوخ وادجار آلن بو وأوسكار وايلد لم يكونوا أخلاقين بالمعنى التقليدي العام للكلمة ولكنهم بلا ريب فنانون عظماء ... ولم تفت هذه الناحية راسكين ولكنه وجد لها تعليلاً ، وظل مصرّاً على رأيه ، فذهب إلى أن عيوب شخصية الفنان لا بد وأن تظهر واضحة في آثاره مهما جل قدرها ... وإن أولئك لو كانوا (أخلاقين) لأبدعوا بشكل أفضل (بخيل إلى أن ذلك ليس صحيحاً بالضرورة وإن العكس يمكن أن يكون صحيحاً ولكن ليس بالضرورة أيضاً) .

لا أدري لماذا جرني التحدث عن شخصية الناقد المثالي ، الى بحث راسكين حول السلوكية الخلقية المعينة ، التي يفرضها مجرد كون الإنسان فناناً مبدعاً ... إنها مجرد صدفة لا أكثر ولا أقل ! ... وبعد ... أعرف انني بما ذكرت لم أكسب ودَّ ناقد . ولا أديب ... ولكنها صيحة راسكين ، ومن حقه أن يقول رأيه وان أنقل صيحته (وما أكثر المتاعب التي تجلبها صيحات الحق !) ...

أرجو أن تحضر الأشباح في الأسبوع المقبل وتريني من « صيحات الحق » ومتاعبها .

شاعر يزور مع الليل (٥)
« جوته » : الخطيئة هي الرفض المطلق

ألا فلتضجر وحشي حجب الضباب ، ولتمزق وحلتي ستائر الأبدية ، ولتندفق
الأرواح في غرفتي الكئيبة ...

هكذا كنت أتمم ... وتغوص همساتي في السجادة الملونة ، وتمتزج بحنينها إلى قدمي
نبح ينزلان فوقها يرفق وجيل .

رأيت فجأة أمامي ... خبيرة دافئة تلهث في حنايا وجهه المرتعدة ... جليل المنظر ،
عميق النظرات ... ازدادت عيناه ظلمة لما سألته : من أنت أيها الضائع ؟

— ما أنا بضائع ! أنا فاوست ... أنا حكيم قيماز ... أنا جوته ...

— أنت ذلك الرجل المثقل بالابداع والحب ... والأحزان ؟

— لقد فاز كتابي « آلام فرتر » بالشهرة والخلود . وكان له أبلغ الأثر في نفوس
شبيبة ذلك العصر ، حتى أن نسبة الانتحار ارتفعت فعلاً لديهم بعد قراءته !! ...
أكرمني « دوق ويمر » وظللت أعمل معه في منصب محترم بقية حياتي « الارضية » ...
ولقبت بحكيم ويمر ...

— متى توفيت ؟

— تقصدين متى ستمتكم ورحلت ؟ كان ذلك عام ١٨٣٢ في حسابكم الأرضي .

— قلت لي انك فاوست . هل تعني بذلك الرجل الذي باع نفسه للشيطان بموجب
صك وقعه لابلوس بدمه ؟ . تلك الحكاية التي أبدعت في كتابتها ؟ ...

• الشاعر جوهان جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) Johann Goethe .

— أجل ! ... فاوست أسطوره ألمانية ، استوحى منها أكثر من « زميل » تمثيلات وقصصاً خلدت بعده ... لقد كتب عن فاوست الشاعر مارلو ... ولكنه جعله يفقد نفسه نهائياً ، ويفشل في الحصول على الغفران ، أما أنا فقد جعلت فاوست يجد نفسه من خلال خطيئته ، ويهتدي إلى طريقه بعد أن طال تحبسه في الدروب الوعرة ...

— وما هي القصة : قصة فاوست ؟ ...

— عالم مثالي مؤمن بالله وضليع في جميع الفنون والمعارف ... يتراهن الشيطان مع الرب على أن باستطاعته أن ينتزع هذه الروح الطيبة منه ... ويرضى الرب بالرهان ويعطي مستوفليس « إبليس » الإذن باغرائه .

ويتسرب الشيطان إلى أعماق فاوست المنيرة خلال نقطة ضعفه ... إلا وهي ولعه المجنون بالمعرفة الكاملة والقوة ... ويقع فاوست في الشرك ، — كما وقع بروميثيوس من قبله — ، ويوقع صكاً مع الشيطان مهوراً بدمه يقتضي بأن يخدم الشيطان فاوست طوال حياته على الأرض ، شريطة أن تصبح روحه ملكاً له بعد مماته ... ويهوى فاوست ، الذي بلغ العقد الخامس من عمره فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ... فيأخذه الشيطان الى كهف الساحرة : حيث يعيد إليه شبابه .. « شبابه الجسدي » فقط ، لكنه يظل في « كهولته » العقلية المعذبة بنزوات جسد فتى ... ويمهد الشيطان السبيل لفاوست كي يلتقي بمرغريت التي تحمل منه . ويظل نضج فاوست يعذبه ، وضميره الموجه يرهقه ... ويتخلى فاوست عنها بعد أن يقتل أخاها ، ويتسبب في موت أمها ...

ويحاول إبليس تسليته فيركب « مكنسة » الساحرات ، ويمتطي فاوست عترة : تطيران بهما إلى قمة جبال الهارتز لحضور ليلة السحرة الرائعة ... ويراقص فاوست ساحرة فائنة الجمال ويكاد ينسى حزنه الداخلي ... وفجأة تقفز من فم الساحرة فأرة هي رمز لخطيئة فاوست الذي يفشل في النسيان ... ويكره الشيطان وقوته ، ويكره كل شيء حتى نفسه ، ويعود لإنقاذ مرغريت (البراعة) بعد فوات الاوان ... يجدها سجيناً ومجنونة بعد أن قتلت ابنها للتخلص من عارها ... ترفض الهرب معه ... ويخلفها تتحب في عتمة السجن ويخرج هارباً ... وينتهي هنا الجزء الأول من فاوست ، وفي الجزء الثاني منه تجددين انه استطاع أن يجد السلام بعد خطيئته ، وذلك بتسخير معرفته في خدمة الناس ، وفي محاولاته التي لم تتوقف لحظة واحدة من أجل انقاذ نفسه .

— ما وجه الشبه بينك وبين فاوست ؟

— كلاًنا وجد نفسه ساعة أحسن أنه فقدما . وكلانا رفض النظم الاجتماعية رفضاً مطلقاً ثم قاده الرفض إلى (الرضى) الحزين ، بعد تجربة مريرة .

أنا هو فاوست بنهمي المجنون للمعرفة ، وجوعي للحقيقة الخالدة ولليقين ...
الجوع الذي ما روته علوم الأرض وكنوزها ، وشفاه النساء ، وأسرار النجوم ، وخفايا الغيب ... كنت أبحث عما وراء هذا كله ... عن نفسي ...

— وماذا وجدت ؟

— وجدت ان من حق الإنسان أن يخطئ بينما هو يكافح باحثاً عن الحقيقة . ليست الفضيلة في تجنب الرذيلة بدافع الخوف ... الفضيلة ليست موقفاً سلبياً جامداً . تتحجرا من التزوات ، وإنما هي القدرة على الانحياز الايجابي نحو (الفضيلة) بعد تجربة تقود إلى القناعة والرضى ... وجدت أن الإنسان لا يضع ما دام يكافح ... هنالك أمل في أن يهتدي ما دام يبحث .

— ولكنك كنت ملحداً ... لقد هاجمت المعابد وهجوتها .

— ما هذا بلحاد ، إلا إذا كان الإيمان في الانقياد الأعمى ... هذا جزء من ثورتي على المؤسسات الاجتماعية الفاسدة .

— لم تكن تؤمن بالتعاليم المسيحية عن الثالوث المقدس .

— لقد اعترفت بفكرة الله وبوجوده ، ولكنني اعترضت على أن نضمن الله — الذي هو فكرة — في كلمة ... ونردد الكلمة ببلاهة وننسى مضمونها . ألا تذكرين فاوست حين قال لمرغريت :

« من يجرؤ على تحديد اسم الله ؟ ... »

ومن يجرؤ مع ذلك على إنكار وجوده ؟ ...

ألم يرفع قباب السماء فوقنا ؟ ...

ألم يرم بالأرض الصلبة تحت أقدامنا ؟ ...

ألم يبعث في النجوم الخالدة ...

إشعاعات أضواء رقيقة ؟

ألا ينظر كل منا في عيني صاحبه بسلام ؟
سمّيه ما شئت ، فهو موجود ...
سمّيه الغبطة ... القلب ... الحب ... الله ...
أنا لا أملك اسماً له ...
إنه إحساس ... إنه بكامله مجرد إحساس ...
وما اسمه إلا الصوت والدخان ...
الذي يكفّن ضياء سمائه ! ...
— لقد أقنعتني ... ولكن . كيف تدعي الرضى بقوانين المجتمع ، مع أنك عشت
زمناً طويلاً مع عشيقتك ؟
— هل نسيت أنني تزوجت منها بعد « عشرة » طويلة ؟ ...
لقد علمتني تجاربي ، أن النظم الاجتماعية ضرورية ، على الرغم من فسادها ،
وأن الحل يكمن في إصلاحها ، لا في إلغائها نهائياً ...
— ما رأيك بالحياة ؟
— جميلة يوداعتها العنيفة وبساطتها المرهقة ... لقد امتنع فاوست عن الانتحار
عندما سمع ضحكات الناس المحتفلين بقدوم الربيع !
« مهمة الألحان ...
بطنينها ...
تبعد كأس السم عن شفتي ... » ...
— هل كنت تؤمن بالسحر ؟ إن فاوست يتضمن جميع معتقدات العصور الوسطى
عن السحر والسحرة ...
— لم أثر السحر في صفحات كتابي إيماناً مني به ، ولكنني سخرت منه كما تلاحظين
في تصويري لكهف الساحرة وتصرفاتها .
— وماذا عن ليلة السحرة في قمة الجبل ؟

- يا لعصرك المادي ... قيمة الشيء عندكم مرهونة بمدى امكان وقوعه ...
ألا ترين مبلغ الجمال الذي تتضوع به أوهامي ؟ ... أنترضين على ليلة السحرة ؟ أما
أحسست بنشوة المجهول تغمرك . وأنت تبصرين فاوست جالساً فوق عتزته الغريبة ،
وهي تطير به فوق القسم : بينما هو يتحاشى أن يصطدم رأسه بالنجوم ، ونظراته
تيم في الأودية الملتوية : والأنهار المتشعبة التي تغسلها غلاثل قمر مسحور عجيب ...
أوهام كتابي : هي من خمرة معتقدات وطني الشعبية ... إنها خمرة الأيام المعتقد
المسحورة ... تسكر بلا كأس ...

- انك مصيب فيما ذكرت ... الاسطورة بنظري ليست سوى ينابيع الحقيقة
بعد أن بجرتها حرارة العتق ودفء الحنين الى الماضي ... الأساطير الشعبية معين ابداع لا
ينضب ... ولكن ... لدي سؤال أخير أطرحه . هل في حديثك عن مرغريت مدلول
واقعي ؟ أعني ، هل تمثل مرغريت فضيحة في حياتك لم تمتد إليها يد النقاد والناس
ولكنها مع ذلك ظلت تأكل من سكينه أعماقك حتى نفست عنها في كتابك فاوست ؟

- هذا سؤال صحفي أرفض الاجابة عنه ... أيتها المتعبة ... لا تكشفني عن الماضي
أكفانه ... دعيه يرقد بسلام ...

وأردت أن أستزيد من خبرته المعتقد ، ولكنني رأيت الشهاب يهوي في الظلمة
باستسلام يائس ، ولمحت جوته يذوب مع رماده وتأوهات ... وعدت وحيدة ... وقد
أطبقت حجب الغيب أبوابها من دوني ... آه لو ألقاه ثانية حقاً ، ولو لثانية !

شاعر يزور مع الليل (٦)
« ويتمان » : أسطورة الموت كاذبة

تقدمي أيتها الروح الضالة في أوقيانوسات السماء ... اقتربي يا متعبة ، فابتهالات
اللهب الحمر تناديك ... وضياح النور بين أكداس الكتب يناديك ... تقدمي أيتها
الروح ... فشحوب وحدتي يناديك ... اقتربي أيتها الروح ... اقتربي .
وانسلت الروح هادئة وادعة ، وابتسامة رائعة ترقص في كل ثنية من ثنايا سحب
وجهها ...

— من أنت أيتها الروح الآمنة المطمئنة ؟

— أنا (والت ويتمان) ... الشاعر الأميركي الأول الذي سكب في الشعر الأميركي
خصائصه المميزة ، التي ميزته نهائياً عن الشعر الانجليزي ...

— ما بالك سعيداً كأنك لم تمت ؟

— « من قال اني انتهيت ؟ من قال ان هنالك فناء ؟ ...

لا ريب في أنني توفيت ...

عشرة آلاف مرة من قبل ...

أسمعك تهمسين بذلك أيتها السماء ...

أيتها النجوم ... ويا حشائش القبور ...

بغموض لا يفهم ...

• الشاعر والت ويتمان (١٨١٩ — ١٨٩٢) Walt Whitman .

فكيف أثبت أنا هذه الحقيقة بوضوح ؟ ...

— هل أفهم من ذلك أنك تؤمن بتناسخ الأرواح ؟

— « ماذا تظنين أنه قد حدث للذين مضوا :

الشبان منهم والكهول ؟ ...

وماذا تظنين أنه قد حدث للوآقي مضين ...

النساء منهم والصغيرات ؟ ...

إنهم أحياء في مكان ما ... كل ذرة في الوجود تصرخ :

ذلك الذي ندعوه بالموت ،

باطل ، وغير موجود ...

وإذا ما وجد ،

فإنه يقود الى حياة جديدة ... »

— ولماذا تدعو نفسك بالشاعر الأميركي الأول ؟

— لأنني جسدت في شعري الروح الأميركية للمرة الأولى ... تحدثت عن المساواة ... الديمقراطية ... الحرية ... وحطمت (تابو) الشعر الانجليزي ، ألا وهو موضوع الجنس الذي لم يجرؤ شاعر على أن يطرقه من قبل ، لأنه يتعارض مع (عمود الشعر الانجليزي التقليدي) ...

— الروح الامريكية تعني ... « المساواة ... الديمقراطية ... الحرية » ؟ هذه نظرية شعرية ... وأنا أريد أدلة ... سئمت فخركم وتبجحكم أيها الادباء ...

— الروح لا تبجح حتى ولو كانت روح أديب ...

الروح تقرر الحقيقة فقط ... ومع ذلك اسمعي هذا المقطع من قصيدتي الشهيرة (وريقات العشب) ...

« تسعة وعشرون رجلاً استحموا عند الشاطئ ...

تسعة وعشرون عاماً من عمر امرأة كانت ترقبهم ...

تسعة وعشرون عاماً كلها وحدة ووحشة ...
إنها تملك البيت الجميل أمام الشاطئ ...
ركض التسعة والعشرون رجلاً
صاحكين راقصين على الشاطئ
وعروق الماء تنسل فوق أجسادهم ...
وكانت هنالك يد خفية ...
تتحسس أجسادهم بحرقه
وتهيئ مرتعشة حول خصرهم وسيقانهم ...
ويعوم الرجال على ظهورهم .
فتلتصع صدورهم في أشعة الشمس ...
ولكنهم لا يشعرون بالتي
تلتصق بهم بشدة ...
ولا يدرون شيئاً عن تحولها ... وتنهذاتها ... »
— هذا لا يثبت كلامك عن أميركا ، لكنه يثبت كلامك عن شعرك (الجنسي) ..
— أبداً ... إنه ناتج عن اعتقادي بأن الجسد ورغباته ، والتعبير عن هذه الرغبات
أمر لا يقل قدسية عن الروح وحاجاتها والتعبير عن هذه الحاجات ...
« صافية وعذبة هي روحي ...
وصاف وعذب هو كل ما تبقى مني ...
وكل ما ليس بروحي ... »
— وما الذي جعل منك الشاعر الأميركي الأول أيضاً ؟
— لم يقتصر تمردي على أفكار الشعراء الانجليز ، وإنما تجاوزها الى وسيلة التعبير
ذاتها ... لا أعتقد أن الوزن الذي طالما التزموه ضروري ... لقد نظمت أشعاري على
طريقة (الشعر الحر) ...

— وماذا يميزك أيضاً ، عن الشعراء الانجليز ، الذين كتبت بلغتهم ، وتمردت على أساليبهم ومعتقداتهم ؟

— لقد عبرت عن التجارب الصوفية الروحية عن طريق الاصطلاحات المادية الجسدية ... اسمعي !

«أتذكرين كيف ارتمينا معاً على الأعشاب ...

صبيحة يوم صيفي شفاف ؟

وكيف سكن رأسك قرب رأسي ...

واستدرت نحوي ...

وكيف أزحت قميصي عن صدري ...

وغرست لسانك حتى قلبي العاري ...

وظللت تبحثين حتى بلغت لحيتي ...

وحتى بلغت قدمي ... أتذكرين ؟ ...

— آسفة ... ولكنني لا أرى صوفية هنا ولا أشمها ...

أرى شاعراً (نمروداً) يدعي الصوفية .

— حكمتك مطعون به لأنك لم تقرأى، ما قبل وما بعد هذا المقطع ... لقد سمعت

(لا تقربوا الصلاة) وضيق الوقت بمنعني من أن أقول (وأنتم سكارى) ...

— لن أصدقك إلا اذا قرأت القصيدة بكاملها ...

لم يثر التحدي ملامحه المحببة ... ابتسامته بدأت تذوي ساعة اخترقت أنظاره

النافذة ... وضاعت في فضاء الليل ... حيث كان شهاب يهوي ... يحترق بصمت

مفجع كخيبة عمري ... فتبتلع الظلمة رماده وتأوهاتة ...

وضاع شاعري من جديد في اوقيانوسات السماء ... وظل صوته الأخير يدوي :

عودي الى أعمالى الكاملة واقربها ... أنتم العرب تطلقون الأحكام السلفية ولا تبدلون

جهداً للمعرفة الكلية ! ...

إقرار

محتويات هذا الكتاب نشرت في المجلات والصحف التالية وفقاً للترتيب الأبجدي :

الأسبوع العربي اللبنانية

الحوادث اللبنانية

جريدة الرأي العام الكويتية

جريدة الكفاح اللبنانية

المعرفة السورية

جريدة الوحدة السورية

الفهرس

٥	مصارحة
٧	الامداء
٩	عن مدينتي الأم
١٠	هوامش على فاتورة دمشقية
١٥	الرصاصه لك ، والجرح لي !
١٩	لك حبي ولي ذاكرتي
٢٠	وكن موتي الاخير
٢٣	وصل الحب ، رحل الحب
٢٧	ثلج النسيان الاسود
٣٢	ساحبك . . ريشما تطلق الحياة سراجي
٣٦	كنا اثنين : انا وحزني
٤١	للقلب ، صرخة بالابجدية وللذاكرة ، شمع أحمر
٤٢	كتابات على دمعنة
٤٥	الغابات تموت متحررة
٤٧	تأملات أدبية في اختراع علمي
٥٢	عالم بلا قلب
٥٩	موت رقم ١

- ٦١ تأملات شبه نرجسية حول كتي
٦٢ « حب » .. الكلمة الملعونة !
٦٧ قصة القصة التي احاول كتابتها
٧١ بحزن غابة تحترق ، أقول ..
٧٥ وحياتي ملحمة تبدأ من عنقي فما فوق
٨٢ وهذا ايضاً نقد أدبي
٨٣ قلبي بلاط الغربية

٨٥ لحظات حارة

- ٨٦ لمسة حنان . . . قبل السفر !
٨٩ حكمة من كربلاء
٩١ قصة حب

٩٥ ماتوا

- ٩٦ فلنعترف
٩٨ اسطورة البدو
١٠٣ موت القمر
١٠٥ لن نصدق انك لن تعود
١٠٩ احتجاج على الموت

١١٣ نموت احدي ميتاتنا

- ١١٤ بعد ان احترق حقل الزيتون !
١١٧ في الزحام . . لا أحد
١٢٠ ماذا اكتب !

١٢٥ كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق . . .

- ١٢٦ ستنشد المدينة من اجلي !
١٢٨ انا دمية الساحرة الشريرة
١٣١ لا شيء سوى فسيفاء !

- ١٣٤ توهمت انني طفلة
١٣٧ الحقيقة رائعة . . مهما تكن ممزقة ودامية
١٤٠ صديقي الذي كان يغني لي . . طوال الليل
١٤٣ السفر . . أهو نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟
١٤٦ المأساة الحقيقة ان تستحيل الاشياء الى ملل
١٤٩ ثار عندما اكتشف اسمه !
١٥٢ العبد والطائر الأخضر
١٥٤ يا رأسها الأشقر . . أترجم الحضارة السوداء بالحجارة ؟
١٥٧ ما رأي طيور الغابة بهيئتنا الجرادية

- احتجاج تلميذة على اساليب التعليم المضجرة
١٦١
١٦٢ (١) شاعر يزور مع الليل / « تشومر » وأنا
١٦٦ (٢) شاعر يزور مع الليل / « بايرون » يفاجئني
١٧١ (٣) شاعر يزور مع الليل / « دون » دونما امرأة واحدة وفيه
١٧٦ (٤) شاعر يزور مع الليل / « بوب » بين اللاأخلاقية . . والاخلاقية
١٨٢ (٥) شاعر يزور مع الليل / « جوته » : الخطيئة هي الرفض المطلق
١٧٧ (٦) شاعر يزور مع الليل / « ويتمان » : اسطورة الموت كاذبة

مؤلفات غادة السمان

الاعمال غير الكاملة

صدر منها :

- | | |
|----------------------------------|--------------------|
| ١ - زمن الحب الآخر | (الطبعة الخامسة) |
| ٢ - الجسد حقيقية سفر | (الطبعة الثالثة) |
| ٣ - السباحة في بحيرة الشيطان | (الطبعة الرابعة) |
| ٤ - ختم الذاكرة بالشمع الأحمر | (الطبعة الرابعة) |
| ٥ - اعتقال لحظة هاربة | (الطبعة الرابعة) |
| ٦ - مواطنة متلبسة بالقراءة | (الطبعة الثالثة) |
| ٧ - الرغبة ينبض كالقلب | (الطبعة الثالثة) |
| ٨ - ع غ تتفريس | (الطبعة الثالثة) |
| ٩ - صفارة انذار داخل رأسي | (الطبعة الثانية) |
| ١٠ - كتابات غير ملتزمة | (الطبعة الثانية) |
| ١١ - الحب ، من الوريد الى الوريد | (الطبعة الثالثة) |
| ١٢ - القبيلة تستجوب القتيلة | (الطبعة الاولى) |
| ١٣ - البحر يحاكم سمكة | (الطبعة الاولى) |
| ١٤ - تسكع داخل جرح | (الطبعة الاولى) |

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص ب : ١١٨٢٣١

تلفون : ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان

(قصص)	(الطبعة الثامنة)	عينك قدري
(قصص)	(الطبعة الثامنة)	لا بحر في بيروت
(قصص)	(الطبعة السابعة)	ليل الغرباء
(قصص)	(الطبعة السادسة)	رحيل المرافىء القديمة
	(الطبعة الثامنة)	حب
(رواية)	(الطبعة الخامسة)	بيروت ٧٥
	(الطبعة الثامنة)	أعلنت عليك الحب
(رواية)	(الطبعة السادسة)	كوابيس بيروت
	(الطبعة الأولى)	غربة تحت الصفرة
	(الطبعة الأولى)	الأعماق المحتلة
	(الطبعة الأولى)	ليلة المليار
(رواية)	(الطبعة الأولى)	أشهد عكس الريح

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص.ب. : ١١٨٢٣١

تلفون : ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠



هذا الكتاب هو الكتاب الرابع في سلسلة الأبحاث في
التحليل النفسي، يضم خمسة محاضرات فيسجل فيها
في كتابها

وتحضر المحاضرة بالشيخ الأسير، كتاب وطني، الذي
أخرها من كتب في العلم، لهذا الكتاب أو الكتاب من
مطبخ نفسي، أو كتاب جديد في كتاب

ويضم كتاب التاريخ، الذي هو - له كتاب -
العلم، من الأبحاث، والكتاب، من الأبحاث - كتاب في
رجعية من كتب - كتابات، من الأبحاث - كتاب
كتاب - كتابات، من الأبحاث، من الأبحاث - كتاب
كتاب في كتاب

كتاب

كتاب في كتاب

To: www.al-mostafa.com